

# الفصل الخامس

## النهضة في إنجلترا

(١) الشعر في القرن الرابع عشر :

جوفري شوسر Geoffrey Chaucer :

لمت إنجلترا قرناً طويلاً مجدبة عقيمًا في قريحتها الأدبية ، فكادت لا تنجب أديباً واحداً نابغاً قبل القرن الرابع عشر ، ثم شاعت الأيام بغمّة أن تلد لها شاعراً عظيماً هو في الطليعة بين شعراء العالم ؛ وذلك هو « شوسر » الذي جاء في التاريخ الأدبي لإنجلترا كالواحة الخضراء في البيداء القاحلة ، أو كالذوذة السامقة ارتفعت بفرعها إلى السماء وكل ما حولها كلاً ضئيل .

نبت « شوسر » في أسرة أقامت في لندن أجيالاً متعاقبة ، وكان أبوه وجده يتجران في الحجر ، ويجنيان من تجارتهما ربحاً طائلاً ، وجاء مولد شاعرنا في عام قريب من ١٣٤٠ ؛ ولم يلبث أن التحق بحاشية دوق كلارنس وتزوج من فتاة كانت وصيفة لزوجته الدوق ؛ وما جاء عام ١٣٥٩ حتى سافر « شوسر » في صحبة « كلارنس » إلى فرنسا في حملة حربية أرسلها « ادورد » ملك الإنجليز ، وينبئنا « فرويسار »<sup>(١)</sup> في تاريخه « أنه لم يبق في البلاد فارس ولا محارب ولا سيد ممن تقع أعمارهم بين العشرين والستين دون أن يرحل في تلك الحملة » وما هو إلا أن وقع « شوسر » أسيراً في أيدي الأعداء ، ولكنه لم يطل به زمن الأسر حتى افتدوه بالمال ، وساهم الملك في فديته بمبلغ كبير ؛ ثم وضعت الحرب أوزارها وعاد « شوسر » إلى إنجلترا وعيّن عضواً في حاشية الملك ، وأخذ يدرج صاعداً في مناصب القصر ويسفّر للملك في بعثات سياسية ؛ وزار إيطاليا في عام ١٣٧٣ وكان لهذه الزيارة أثر كبير في حياته الأدبية ، ثم عيّن بعد ذلك محصلاً للرسوم الجركية المفروضة على الصوف والجلود في ميناء

(١) راجع فصل الأدب الإنجليزي في العصر الوسيط في الجزء الأول من قصة الأدب في العالم .

لندن ، وكان دخله إذ ذاك قد ضخم إلى حد كبير ؛ أما إنتاجه الأدبي في تلك الأعوام التي ازدهر فيها من الوجهة المادية فلم يزد على بعض القصائد والأغاني والروايل التي لم يبق لنا منها إلا شطر ضئيل ، وأما الجزء الأعظم من أدبه فلم يظهر إلا في عهد الملك رتشارد الثاني<sup>(١)</sup> .

أرسل شوسر في بعثة سياسية أخرى عام ١٣٧٨ إلى إيطاليا ، ثم انتخب بعد ذلك بثمانية أعوام ممثلاً لمقاطعته « كينت Kent » في البرلمان ، وعندئذ انقلب النواب على دوق لانكستر الذي كان يحميه ، ومن ثم أخذت الأيام نقاباً للشاعر ظهر المحن ، فحرم مناصبه جميعاً وماتت زوجته ؛ لكن شاء الله أن يكون حرمانه خيراً للأدب ، إذ أنفق الشاعر فراغه الطويل في الإنتاج الأدبي ، فقفى عامين خصيبين ، لا ينفك عن الكتابة والإنشاء .

وفي عام ١٣٨٩ تولى الملك بنفسه زمام الأمور في الدولة ، فأعاد شوسر إلى مناصبه ، وعينه كاتباً خاصاً له ، ثم عبس له الدهر من جديد ، وعزل مرة أخرى ، وعانى ما عانى من الفقر والعوز ، حتى ولى العرش هنري الرابع في آخر عام من حياة الشاعر ، فأرسل له شوسر قصيدة عنوانها « شكاة إلى كيس نقودي الفارغ » فاستجاب الملك دعاءه ، ومات شوسر عام ١٤٠٠ ، ودفن في مقبرة العطاء في « دير وستمنستر » .

كان أول ما أنتجه « شوسر » في الأدب مما يستحق الذكر ترجمته لقصيدة « قصة الوردة »<sup>(٢)</sup> ، ولا عجب فقد كان للأدب الفرنسي أعمق الأثر في « شوسر » في المرحلة الأولى من حياته الأدبية ، وإنك لتلمس هذا الأثر واضحاً فيما يميز شعره من سلاسة ورشاقة ؛ والقصيدة الأصلية لشاعرين فرنسيين هما « لورس » و « دي منج » وهي مفرطة الطول تربي أبياتها على اثنين وعشرين ألفاً ، ولم يترجم إلى الإنجليزية منها إلا أقل من ثلثها ، وهذا الثلث نفسه ينقسم في الترجمة ثلاثة أقسام ؛ فأما القسم الأول الذي يمتد من فاتحة القصيدة إلى البيت الخامس بعد السبعمئة والألف ، فلا شك في نسبة ترجمته إلى

---

(١) تولى الحكم عام ١٣٧٧ ؛ وقد عاصر شوسر ثلاثة ملوك : ادورد الثالث ثم رتشارد الثاني ، ثم هنري الرابع الذي تولى الملك في آخر عام من حياة شوسر .  
(٢) Roman de la Rose راجع فصل الأدب الفرنسي في العصر الوسيط في الجزء الأول من هذا الكتاب .

شوسر ؛ وأما القسم الثاني الذي يمتد إلى السطر العاشر بعد الثمانمائة والخمسة الآلاف ، فلا شك أنه لم يكن من ترجمة شوسر ، وأما الجزء الثالث الذي يشمل ثمانمائة وألفاً من الأبيات فهو وضع شك ، وأما موضوع القصيدة فيتخذ صورة الحلم — كما هو مألوف في الأدب الوسيط — فيرى محبٌ ولهان في حلمه أنه صادف حديقة طويلة عمر بيضة مسورة ، أسوارها عالية كأسوار القلاع الحصينة ؛ فلما دخلها قابل فيها أشخاصاً كثيرين كل منهم يرمز إلى شخص معروف ، حتى انتهى به السير إلى بئر نارسيس<sup>(١)</sup> ، فرأى في قاعها البالوريّ اللامع منظر الحديقة منعكسةً على سطحه ، وكان فيما رأى شجرة ورد جميلة ، ورأى بين أزهارها وردة فتنته بجمالها حتى ليمتدثر على الشاعر أن يصف شيئاً من بهائها ورونقها ، فيشغف بها حباً وترشقه خمسة من سهام الحب في وقت واحد ، ويأخذ من فورهِ في السعي وراء هذه الوردة الفاتنة ليقتنئها ، وبقية القصيدة وصف لهذا السعي في سبيل الوردة المشوقة .

وفي عام ١٣٦٩ أنشأ شوسر « كتاب الدُّوقَة » ، ينهى به موت زوجة الدوق لانكستر ؛ وإن هذه القصيدة لتوضح في جلاء خصائص شعره في صدر حياته ، وتبين إلى أي حد كان تأثره بالأدب الفرنسي إذ ذاك ، فتراه ينسج فيها على منوال العصر في أوضاع الشعر ، فيجسد الأفكار المجردة ، ويتحدث عنها كأنها هي أشخاص حية من لحم ودم ؛ وهو في تلك المرحلة الأولى من حياته الأدبية لم يمزج شعره بالفكاهة إلا قليلاً ، مع أن روح الفكاهة أصبحت فيما بعد طابعا يميزه .

تلك كانت آثار الشباب ، فلما نضجت رجولته وقمت له الزيارة الثانية لإيطاليا فتأثر بها في سفره أعمق الأثر ؛ إذ تعلم الإيطالية ودرس « دانتي » و « بوكاتشو » ، وقد كتب قصته الشعرية « ترويتس وكرسدا » على غرار قصيدة بوكاتشو « فيلوسترانو »<sup>(٢)</sup> (ومعناها جندي الحب) ؛ وتؤلف قصة « ترويتس وكرسدا » من ثمانية آلاف بيت ، لم يكن شوسر مدينا فيها للقصص الإيطالي العظيم إلا بما يدنو من الثالث ؛ ولعل هذه القصة تكون أجمل أثر أدبي كامل بين آثار شوسر جميعا ؛ وإنما نقول ذلك لأن

(١) راجع قصة « إكو ونارسيس » في فصل الأساطير اليونانية في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) راجع بوكاتشو في الفصل الأول من هذا الكتاب .



كذلك تتخذ صورة الحلم<sup>(١)</sup> ، فيبدأ الشاعر يروي عن نفسه أنه بينما كان يقرأ أثرا أدبيا لأحد السكتاب اللاتين القدماء إذا به ينفو ويأخذه النعاس ، فيرى في حلمه حديقة غناء ، حيث السطوة كلها في قبضة إلهة — هي «الطبيعة» — تصرف الأمر هنالك كيف تشاء ، وبينما هو يجوس خلال ذلك البستان رأى الطير كله قد اجتمع لينتقى كل زوج زوجة ترافقه طوال العام ؛ وكانت «الالهة» الرئيسة — وهي «الطبيعة» — وقد أمسكت في يدها بأثنى النسر ، ووقف بين يديها ثلاثة ذكور من النسور تتنازع أيها يظفر بملكة الطير ، فأصدرت «الطبيعة» أمرها أن يمثل كل نوع من الطير طائر واحد ، يبدي رأيه في الأمر على سبيل الشورى ؛ وهنا يبدي شوسر غاية البراعة في وصف ذلك المنظر الريفى وفى إطلاق الحديث على أسنة الطير ، كما يبدي روحا فكهة بلغت من الروعة حدها الأقصى ؛ واشتد النقاش والجدل ، فلم تجد «الطبيعة» بداً من أن تترك أثنى النسر تختار من الذكور المتنافسة ما تشاء .

ولم يمض عامان على إخراج «برلمان الطير» ، حتى أنشأ شوسر قصيدة جديدة عنوانها «دار الشهرة» ، وهي مزدوجة القافية ، أعنى أن كل سطرين متتاليين يشتركان في قافية واحدة ، وفى كل سطر منها ثمانية مقاطع ، وتتألف من ثلاثة فصول ، لكن الشاعر لم يتمها على ما أراد لها ، وطول ما كتبه منها ألفا بيت ومائة ؛ وهي أيضا تتخذ الصورة المألوفة ، صورة الحلم ، فيرى الشاعر فى رؤياه أنه فى معبد من زجاج امتلأ بالتماثيل الذهبية والتساوير التى تمثل أشخاصا ومناظر من الأدب القديم ؛ وقد حمله نسر إلى «دار الشهرة» بأمر من الإله «جو بتر» جزاء وفاقا بما أسدى من يد بيضاء فى سبيل الحب ؛ فوجد تلك الدار العجيبة قائمة على ذروة صخرة عالية من الثلج ، وهي — كما يقول الشاعر — «أساس ضعيف لقصر شامخ» ، ويستعرض الشاعر فى قصيدته ما يشاهد من تماثيل وصور تمثل الآداب القديمة ، فيعرض لقارئة اطلاعا واسعا على تلك الآداب ، ثم هو ينتهز فرصة الرمز والتلميح ، فيبيح لنفسه التعليق على ما كان فى عصره من أحداث وأشخاص .

(١) يلاحظ أن الشاعر متأثر فى هذا «بأنشودة الورد» التى ترجمها عن الفرنسية .

ولا شك في أن شوسر قد تأثر في هذه القصيدة « بدانتى » في الكوميديا الالهية <sup>(١)</sup> فهي — كالكوميديا — ثلاثة فصول ، وهي كذلك حلم يراه الشاعر في نعاسه ؛ وكما يتخذ « دانتى » من « فرجيل » دليلاً له يهديه ، يتخذ شوسر من النسر دليلاً هادياً — غير أن الفارق بعيد في قوة الشعر في القصيدتين ، « فدار الشهرة » ضئيلة متهافة البناء إذا قيست « بالكوميديا » ذات البناء الأشم الجبار ؛ وشوسر في هذه القصيدة لا يزال محاكياً ومقلداً يترسم الأوضاع التقليدية في الشعر ، إلا أنه بدأ يعبر عن شخصيته ونفسيته حين أخذ يحدث النسر عن نفسه ؛ ويشيع في القصيدة كلها فكاهة ساخرة كالتي أجراها على لسان « بانداروس » في قصة « ترويتس وكرسدا » التي أسلفنا ذكرها .

وكان آخر ما أنشأه « شوسر » في وسطى مسرحة الأدبية قصيدة عفوانها « أسطورة المحصنات » وهي تقع في ستائة وأتى بيت من الشعر ، وقافيتها مزدوجة ؛ أنشدها الشاعر ليشيد بالمحصنات من النساء كأنما أراد أن يكفر عما اقترف في حقهن في الجزء الذي ترجمه من « أنشودة الورد » ؛ فقد رأى الشاعر في حلمه أن إله الحب جاءه يؤنبه على استخفافه بالنساء وسخريته بعاطفة الحب الخالدة ؛ فدافع عن نفسه « بأسطورة مجيدة عن المحصنات من النساء ، العذارى منهن والزوجات ، اللاتي أخلصن للحب طوال حياتهن » ولم يستطع شوسر إتمام القصيدة ، فتركها ناقصة كما فعل بقصيدة « دار الشهرة » ، وإن القارىء ليحس في كلتا الحالتين أن الشاعر إنما نفى يده من القصيدة حين أدركه الملل ، ففي قصيدة « دار الشهرة » اندفع هو ونسره إلى عالم خيالي ثم لم يسع أن يعود من عالمه هابطاً فوق هذه الأرض ، فظل مع النسر مجلقاً ؛ وفي هذه القصيدة تحس كأنما مل الشاعر رواية قصص قديمة ؛ لأنه عند بداية القصيدة اعزم أن يروي قصة عشرين امرأة من نساء التاريخ والأساطير ممن كن مخلصات في الحب ، لكنه لا يقدم لنا سوى سبع قصص من بينها قصة عن كليوباترة ، وقصة عن ديدو ملكة قرطاجنة <sup>(٢)</sup> .

وأهم أجزاء القصيدة « مقدمتها » التي يهدبها حلمه ، ويقطع فيها على نفسه عهداً أن يقص هذه القصص عن طيبات النساء ، ليعتذر بها عن كفرانه بالحب الذي أبداه في ترجمته

(١) راجع « دانتى » في الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) راجع ملحمة « الانياذة » لفرجيل في فصل الأدب الروماني في الجزء الأول .

لأنشودة الوردية ، وفي تصويره لكرسدا التي لم تخلص في حبها لترويتس ، وكذلك يبين في المقدمة مقدار حبه للكتب ولزهور الأقوان ، ويثبت فيها قائمة بقصائده ، منها أسماء لقصائد لم تهبط إلينا ؛ وما هو جدير بالذكر عن « مقدمة » هذه القصيدة أن لها صورتين باقيتين ، تختلفان في اللفظ وصياغة بعض الأبيات ، والمفروض في إحداها أن تكون قد كتبت أولاً ، وفي الأخرى أن تكون إصلاحاً للأولى ، فمن هاتين الصورتين يتبين كم كان « شوسر » يعني بتجويد شعره .

وأروع آية أبدعتها عمقيرة شوسر « حكايات كانتربرى » التي لم يكن إنتاجه السابق بالقياس إليها سوى إرهاب وطمهيد ؛ وقد تابع فيها « بوكاتشو » في كتابه « ديكامرون » الذي روى فيه عدداً من حكايات أجراها على السنة عشرة من الرجال والسيدات فروا من الوباء المتفشى في مدينة فلورنسه ، إلى منزل بالريف النقي الخالص . كان ضريح القديس تومي أبكت St. Thomas-à-Becket في كانتربرى بالإنجلترا مكاناً مقدساً يحج إليه الناس من كل حدب وصوب في أوروبا إبان العصور الوسطى ، وكان هنالك في الطريق إلى ذلك الضريح فندق يسمى « فندق تابرْد » فتخيل الشاعر أن تسعة وعشرين حاجاً اجتمعوا ذات مساء في ذلك الفندق ، فاقترح « هنرى بيلي » صاحب الفندق أن يروي كل مسافر قصته وهم في طريقهم إلى ضريح القديس ، وقصتين آخرين وهم عائدون ، وأن يوازن بين القصص جميعاً ليكافأ المتفوق الممتاز عشاء على حساب زملائه حين يعودون إلى الفندق ؛ هكذا وضع الشاعر تصميماً ليروى لقارئه أكثر من مائة وعشرين قصة — المسافرين تسعة وعشرون ، أضف إليهم صاحب الفندق والشاعر ؛ هذا في رواية ، وفي رواية أخرى أن مسافرين آخرين انضموا إلى تلك المجموعة في الطريق ، وفي كلتا الحالتين كان عدد من يقص القصص في نية الشاعر واحداً وثلاثين — فقد كان مشروعاً أدبياً عظيماً ، لكن الشاعر لم يرومما اعتزم أن يرويه إلا أربعاً وعشرين ، منها واحدة لم تكمل وأخرى ليس منها سوى بدايتها .

وكان شاعرنا أشد طموحاً في قصصه من « بوكاتشو » لأن الشخصيات التي صورها « بوكاتشو » كانت كلها تمثل طبقة واحدة من الناس ، فسرعان ما تبعث القصص المتشابهة مللاً في نفس قارئها على الرغم من كل ما فيها من براعة وفن ؛ أما « شوسر »

فقد اختار « حجاجه » من طبقات المجتمع المختلفة ليجعل كلا منهم يصور بقصته  
وبشخصيته طبقة معينة من الناس ؛ فاذا استثنيت طبقة النبلاء الرفيعة وطبقة السفلة الوضيعة ،  
وجدت كل طوائف المجتمع الانجليزي مرسومة مصورة في قصص شوسر أدق رسم  
وأبرع تصوير ؛ وقد أعمل الشاعر فنه في تنابح القصص ليكون بينها شيء من التباين  
يزيل ما عساه أن يحدث في نفس القارئ من ملل ، وقدم الشاعر لقصصه « مقدمة » هي  
آية آياته على الإطلاق ، إذ عرض فيها شخصياته عرضاً سريعاً قبل أن يبدأوا رحلتهم  
ويقصوا قصصهم ، فعرف كيف يقدم لك ، كلا منهم في صورة ناطقة ساطعة حتى لكأنك  
حين تقرأ « المقدمة » تنظر إلى معرض الصور عاقت على حوائطه صورة كل مسافر في  
إطار خاص ، فمن أشخاصه « فارس » و « محارب » و « حامل السلاح للفارس » فهؤلاء  
يمثلون الطبقة المحاربة في تلك العصور ، ومنهم « رئيسة دير » تمثل البساطة والطهر ،  
وامرأة أخرى يسميها « زوجة باث » تصور المرأة التي انغمست في شئون الدنيا ، ومنهم  
« قسيس » فقير متقشف لا يزن للدنيا وحطامها وزنا ، تراه طيلة اليوم ضاربا في الأرض  
وعكازته في يده يعظ الناس من قلب مخلص ، وإلى جانبه ترى صورة « راهب » تريك  
كم كان له من الجياد والثياب الجميلة ، وكم كان يلهو بالصيد ويكره العمل ، فعباءته من  
فاخر النسيج ، يحلى أطرافها جميل الفراء ، ويشبك غطاء رأسه بمشبك من ذهب تدلت منه  
شارة الحب ، هكذا يصور لك « الراهب » ساخرأ هازئاً ، وفيمن يصورهم كذلك « طالب  
علم في أكسفورد » و « رجل قانون » و « طباطخ » و « ملاح » و « طحان » و « فلاح »  
و « تاجر » الخ الخ ، وهكذا يصور كل طبقات المجتمع : رجال الدين ورجال الأعمال  
والصناع والزراع والفرسان والمحاربين وغيرهم ، ولا يقتصر الشاعر في تصوير التجار في  
القرن الرابع عشر على الحكايات التي يحكيها الحجاج في رحلتهم ، بل يزيد على ذلك  
تلميحات بين كل حكايتين وأوصافاً لمناظر مما يجعل الصورة أشد وضوحاً .  
وسنقدم لك فيما يلي نموذجاً من تصويره للشخصيات في « المقدمة » ، فهناك وصفاً  
« لرئيسة دير » .

وكان بين القوم راهبة ، هي رئيسة ديرها  
وكانت في ابتسامتها غاية في السداجة والحياء

إن أتسمت فـ « لُوى » القديس أغلظُ أيمانها  
واسمها السيدة « إجلفتين »  
إذا رتَّأتُ الدعاء المقدس أحسنته ترتيلا  
فجاء مُنقَّما من أنفها أجمل النغم  
وكانت تشكلم الفرنسية في روعة وطلاقة  
تشكلمها بلهجة « متراتفورد — آت — بو »<sup>(١)</sup>  
لأنها جهات فرنسية ، باريس ؛  
وفي تناول طعامها قد أجيد تدريها  
فلا تسمح للكمة واحدة بالسقوط من شفيتها  
ولا بلت أناملها في المرق العميق  
لا تسقط منه قطرة على صدرها  
لأنها تجيد حمل الطعام الى فيها  
وكانت تسمح شفيتها العليا مسحا نظيفا  
ولا ترى على فنجانها ذرة واحدة  
من الدهن ، حين تشرب شرابها  
فكانت تبدو بعد طعامها غاية في البهاء

\*\*\*

وكانت تقيض إحسانا وإشفاقا  
حتى لتبكي إن رأت جرذا  
أمسكه الفخ فمات أو جرح  
وكان لها عدد من كلاب الصيد تطعمها

(١) 'And French She Spak... after the scole of Stratford - Atte - Bowe' لانقاد تعليقات مستفيضة على هذا السطر لا داعي لذكرها هنا ، وحسبنا أن نشير إلى تهكم الشاعر بمن كانوا يباهون بالتحدث بالفرنسية في ذلك العصر مع أنها كانت فرنسية ركيكة مغلوطة ، واللهجة المشار إليها هي لهجة نورمانديا .

بمشوى اللحم واللبن وطازج الخبز  
فان مات كلبٌ منها بكته بالدمع السخين  
بل كان يُبكيها أن يضرب ضاربٌ كلها بمصاه  
فقد كانت كلُّها ضميراً حياً وقلبا رحماً  
وحول عنقها حزام محبوبك ؛  
هى شماء الأنف رمادية العينين اللامعتين  
صغيرة الفم وكان بضاقانيا  
ولها جبهة لا شبهة فى جمالها  
عريضة بعض الشيء فيما أرى  
لا ضيق فى أبعادها ؛  
ورأيتها أنيقة الثياب  
تطوّق ذراعها خرزات من المرجان  
وعقدان من خرز خضر « الشواهد »  
وتدلت حلية من ذهب وهاج  
نقش عليها « أ » مزخرفة  
ثم كتبت هذه العبارة : « الحب قهار »

فإذا ما فرغ الشاعر من استعراض أشخاصه فى « المقدمة » واحداً فواحداً ، بدأ بحجابه المسير ، وأخذوا يحكون ، وكان أول من روى « الفارس » فقص قصة من بوكاتشو خلاصتها أن « پالامون » و « أرسيتى » كانا صديقين ثم تنازعا على فتاة تسمى « إملى » ، فكان لا بد لهما من مبارزة لتكون الفتاة للظافر ؛ وفى اللحظة التى كاد يكتب النصر فيها لأرسيتى تدخل « پلوتو » فى الأمر وأنزل « أرسيتى » عن جواده ، فخرج « پالامون » من المبارزة ظافراً وتزوج من « إملى » — هذه خلاصة لا قيمة لها إلى جانب ما حكاه شوسر فى قصته ، لأنه إنما يرمى قبل كل شيء إلى تصوير الفرسان فى ذلك الزمان حين يقتتلون ، فكل القيمة الفنية إنما هى فى تفصيلات الوصف وفى نصوص الصورة التى ترسم فى ذهن القارئ ، وهكذا قلّ فيما نعرضه من ملخصات لبعض حكاياته .

« فرجل القانون » يروي قصة عن فتاة اسمها « كوستانس » ابنة الإمبراطور الروماني تزوجت من سلطان الشام على شرط أن يعتنق هذا السلطان العقيدة المسيحية ، لكن أم السلطان لا تحتمل ردة ابنها عن دينه فتهتمله وتطلق الفتاة هائرة في سفينة على وجه البحر ، وتبلغ « كوستانس » بسفينتها « نورثمبريا » وتتزوج ملكها ، لكن أم الملك في هذه المرة أيضاً يفضها هذا الزواج فتتهز فرصة غياب ابنها وتبعد الفتاة عن المدينة ، فلا يسمع الفتاة إلا أن تعود إلى روما ؛ ويعود الملك فلا يجد زوجته « كوستانس » فيقتل الأم الآثمة ويرحل إلى روما ليكثر عما اقترف وهناك يصادف زوجته .

ويأتى دور « رئيسة الدير » فتحكي حكاية ولد مسيحي صغير قتله اليهود في بلد أسيموى إذ كان يرتل آيات من الإنجيل .

وهنا ينادى « صاحب الفندق » شوسر<sup>(١)</sup> ويأخذ في مداعبته قليلاً ثم يطلب إليه أن يقص على الجماعة قصته ، وها هنا تبدو من الشاعر لفظة فنية جميلة ، إذ قص على السامعين إحدى القصص الخيالية القديمة — حكاية السير توباس — وإنما قصد إلى المعاتبة والنقد ، فقصتها في صورة الحكايات المنظومة القديمة ، فلم يُطَقْ صاحب الفندق هذا « النظم الركيك » على حد تعبيره ، وطلب إلى الشاعر أن يحكي حكاية أخرى ، فروي شوسر قصة نثرية .

ويأتى دور « المحارب » فيروي قصة جميلة عن قبيل ملك التتار ، وابنته « كاناس » ، فبينما كان قبيل ذات عام يحيي عيد تمويجه في قصره العظيم ، إذا بهذا « المحارب » يجيئه راكباً جواداً سحرياً ويحمل معه خاتماً ومرآة فيهما كذلك قوة السحر ؛ فأما الخاتم فيمكن لابسه من فهم لغة الطير والحيوان ومن معرفة خصائص العشب في معالجة المرضى ، وأما المرآة فتبدي لمن ينظر فيها أوجه الأصدقاء والأعداء منزوعاً عنها أقنعة الرياء والنفاق ؛ وأما الجواد فيطير براكبه في الجو أتي شاء وبأية سرعة أراد ؛ وقصة الجواد هذه مأخوذة — على الأرجح — من قصص ألف ليلة وليلة بكل تفصيلاتها ؛ ولم يتعم الشاعر « قصة المحارب » لسبب لاندريه .

(١) كان شوسر بين الحجاج وقص حكايتين .

ويحكى « طالب العلم في أكسفورد » حكاية مأخوذة من بوكاتشو ، ويحكى « القسيمة الراهبة » حكاية « الديك والثلج » ، وهكذا مما لا يفي التلخيص عن قراءته شيئاً لثرى إلى أى أوج ارتفعت عبقرية شوسر فى خصوبة الإنتاج وفى رشاقة الأسلوب وقوته .  
ومما هو جدير بالملاحظة أن شوسر ، على الرغم من أنه عاش فى عهد امتلات أيامه بالقلق والاضطراب ، وعلى الرغم من أنه غاص فى تلك الحياة جندياً وسفيراً ورجلاً من رجال الأعمال وعضواً فى بلاط الملك وقاضياً وعضواً فى البرلمان وشاعراً ، فإنه لم يذكر فى شعره حادثة واحدة من كبريات الحوادث التى وقعت فى زمانه ؛ وذلك دليل على إيمانه بأن أحداث الحياة المادية مؤقتة عابرة ليست جديرة بالشمر الخالد مهما بلغت جسامتها ، وإنما عنى شوسر بتصوير الانسان لأنه كان قبل كل شىء شاعراً .

بقى لنا أن نقول كلمة موجزة فى تأثيره فى اللغة الإنجليزية نفسها ؛ فقد كان له أثر عميق فى توحيد اللغة القومية فى البلاد ، إذ كان ثمة لهجات مختلفة ، فلما كتب شوسر بلغة الوسط الشرقى ل إنجلترا — وكانت أكثر اللهجات طلاقة وأبسطها فى القواعد — لم تلبث أن أصبحت اللغة الأدبية فى البلاد كلها ؛ وهذا يذكرنا من جديد بدانتى حين كتب باللهجة التوسكانية فأصبحت بفضله لغة بلاده ، كما يذكرنا بسر فانتيز حين كتب باللهجة الكاستيلية « القشتالية » فجعلها أداة التعبير الأدبى فى أسبانيا :

لهذا كان شوسر قميناً أن يكون — كما أسماه دريدن Dryden « أبا الشعر الإنجليزي »

وليم روجر لاند William Langland (١٣٣٢ — ١٤٠٠) :

عاش لانجلاند معاصراً لشوسر ، فشهد عهداً ملأته الحوادث الكبرى ، إذ عصفت به عواصف الانقلاب فى السياسة والاجتماع والدين ، ودارت فيه أعنف المعارك وأبشع الحروب ، وتفشى به الطاعون ففتك بالناس فتكا ذريعاً .

وأهم شعره قصيدتان : « بيرز الحراث » وقصيدة « أحسن صنيعاً » ؛ وكلنا القصيدتين فى صورة الحلم ، كألوف ذلك العهد ، فتأخذ الشاعر سنة من النوم إذ هو على سفح تل ذات صباح جميل من شهر مايو ، فيرى حماراً رائعاً « رأيتنى أدثر نفسى باللائف ، فى يوم صائف ، حين كانت الشمس رخية ، فكنت فى هيئة الراعى ، أرتدى ثوباً شبيهاً بمسرح

الراغب ، واست أعنى الراهب القابع في صومته ، بل الذى يجوس خلال الارض باحثا عن الأخطار يركبها .

ويرى « بيرز » في حمله حقلا جميلا يوج بالناس ، وما هو إلا أن تتقدم « الرشوة » لتتزوج من « الزيف » لكن اللاهوت يتدخل لمنع الزواج ، فتعرض التفتية أمام الملك في لندن ؛ وهنا يصف الشاعر مناظر لندن ومناظر الريف ؛ والقعيدة كلها رمزية تشير حوادثها وأشخاصها إلى غير معانيها المباشرة .

وكذلك تتألف قصيدة « أحسن صنيما » من سلسلة من الأحلام الرمزية .  
وأما عن اللغة التى استخدمها « لانجلاند » فى شعره ، فلم تكن لهجة الوسط الشرقى لانجلترا (صافية) خالصة — كما هى الحال مع شوسر — إنما هى خليط بين لهجتى الوسط والجنوب ؛ وقد أجرى بعض العلماء مقارنة دقيقة بين شوسر ولانجلاند من حيث الألفاظ ، فوجد أن ثمانية وثمانين فى كل مائة من ألفاظ مقدمة « بيرز الحراث » وفى ألفاظ الأربعائة والعشرين سطرا الأولى من « مقدمة » شوسر ، كلمات انجلوسكسونية أصيلة ؛ وأن عدد الكلمات الفرنسية عند « لانجلاند » كبير نسبيا ؛ والحقيقة هى أنه قبل أن يبلغ القرن الرابع عشر ختامه ، كانت الألفاظ الفرنسية قد شاعت فى اللغة الانجليزية ؛ فلم يستطع شوسر أو لانجلاند ، أو أى كاتب آخر اجتنابها إذا أراد أن يعبر عما فى نفسه تعبيرا كاملا تاما ؛ فقد كانت الفرنسية عندئذ لغة المحاكم والسياسة ولسان الملك وحاشيته ، ولم يبطل استخدامها بصفة قاطعة إلا فى منتصف القرن الخامس عشر ، أى بعد موت شوسر ولانجلاند بمخمسين عاما .

وخلاصة القول أن الشعراء كليهما استخدمتا نسبة واحدة من الألفاظ الانجليزية الأصيلة والألفاظ الفرنسية الدخيلة ؛ غير أنهما يعودان فيختلفان فى الاتجاه والصبغة ، فشوسر يصطبغ باللون النورمندى ، ولانجلاند تسوده النزعة السكسونية ، ويعرف شوسر طبقة الموسرين والمحاربين الذين يعيشون فى شىء من البذخ ، فيتناول بقلمه قصور النبلاء وحصون الفرسان ومدن التجارة والصناعة ، أما لانجلاند فينتج ببعصره نحو الفقراء فيصف لنا من ساء غذاؤهم وشدق عليهم العمل ، ويصور حياة الريف التى أبهظها وأضناها الظالمون من الطبقات العالية ، بل التى أرهقها وأذواها قانون الدولة ، وكذلك يختاف الشعراء

في الاتجاه الأول نفسه ، فسوسر يصور بقلبه أفراداً ذوي معالم محدودة وألوان ناصعة . حتى إنك لتصادف في أدبه كل أنماط الناس في العصور الوسطى ، أما لانيجلاند فيعني بمجموع الدهماء وينصت لأينهم وشكواهم ، وكان شعره أول صيحة بعثها الأدب الإنجليزي في سبيل الديمقراطية ، وسوسر أشمل نظراً من لانيجلاند ، فبينما تراه يجيل البصر في العناصر الإنسانية المشتركة بين شعوب العالم أجمع ، ترى لانيجلاند يتنصر نظره على بلاده ، حتى قيل عنه إنه بحق الإنجليزي الصميم ، يعرض لنا سوسر أشخاصاً ضاحكين يرحون ويرفلون في فاخر الثياب ، ويعرض لانيجلاند الطبقات العاملة منهوكة القوى في أداء واجبها بأمانة وبسالة لكنهم صفر الوجوه ، يرتدون الأسمال .

جور Gower « ١٣٢٧ — ١٤٠٨ » :

كان « جَوْر » صديقاً حميماً لسوسر ، ولد قبله ببضع سنوات ومات بعده ببضع سنوات : وله ثلاث من طوال القصائد : كتب إحداها بالفرنسية ، والأخرى بالإنجليزية ، والثالثة باللاتينية : فأما الفرنسية فقصيدة « امرأة المفكر » وأما الإنجليزية فهي « اعتراف الحب » وأما القصيدة اللاتينية فعنوانها « صوت إنسان يصيح » ؛ وكانت الفرنسية التي كتبها هي اللغة الفرنسية النورماندية<sup>(١)</sup> التي أطلق عليها فيما بعد « فرنسية ستراتفورد — آت — بو » وهي اللهجة التي أشار إليها سوسر في تصويره الدير في « مقدمة » حكايات كانتربري ؛ وكذلك كتب « جور » بالفرنسية مجموعة أشعار عنوانها « خمسون حكاية منظومة » .

لبث « جور » طوال حياته تقياً ورعاً ، ولما أدركته الشيخوخة اعتزل مع زوجته في أحد الأبرية ؛ وقد أجزل الإحسان للكنيسة التي دفن فيها ، والتي لانزال ترى فيها قبره الجميل ، حيث رقد جثمانه واستند رأسه على مجلدات ثلاثة اشتملت على قصائده الثلاث ، وكان « جور » موسراً نبت في أسرة مجيدة ، وقد اتصل بالقصر وصادق الملك رتشارد الثاني ، وكان لهذا الملك سيئات وآثام لم يشأ جور أن يسجلها له في قصيدته « صوت إنسان يصيح » مع أنه استعرض في القصيدة كافة سيئات العصر — والى « جور » أهدى سوسر قصته العظيمة « ترويتس وكرسدا » .

(١) راجع ما كتبناه عن سوسر .

ولسنا نزع أن شعر « جور » قد بلغ حداً بعيداً من الجودة والروعة ، بل إن الأمر على تقيض ذلك ، فقصائده باردة الشهور ضعيفة التركيب رتيبة النغم ، ولا يقرؤها إلا قلة من الناس ؛ لكنه برغم ذلك كله جدير بمكانة عالية في تاريخ الأدب الإنجليزي ، لأنه يمثل في أدبه التقاء اللغات الثلاث التي كانت مستعملة في إنجلترا مدى قرون متتامة ؛ فكتب قصائده الثلاث بتلك اللغات المختلفة كما أسلفنا ؛ أما اللاتينية فقد كانت أداة الكتابة عند العلماء جميعاً منذ القرن السابع حتى القرن السادس عشر ، وأما الفرنسية النورماندية فقد لبثت أمداً طويلاً سداً منيعاً في وجه اللغة الإنجليزية ، فلا تسمح لأصحاب العبقرية والمواهب أن يدفعوا بلبقتهم الأصيلة إلى مكان السيادة ، وها نحن أولاء بصدد أديب يقف في مفترق الطرق متردداً بين اللغات الثلاث ، ولعله لم يكتب بعض شعوره بالإنجليزية إلا بعد أن ضرب له شوسر المثال فاحتذاه ، وقد أنشأ « جور » قصيدته الإنجليزية « اعتراف الحب » في أبيات مثمثة المقاطع مزدوجة القافية ، وهي تتألف من عدد يزيد على خمسة عشر ألفاً من الأبيات وتقع في خمسة أجزاء ؛ وهذه القصيدة إنما كتبت بدعوة من الملك الشاب رتشارد الثاني ، ولذلك أهداها عند أول إخراجها إليه ، لكنه عاد بعد ذلك فأهدى طبعها الثانية لدوق لنكستر الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الرابع . وأما قصيدته الفرنسية « مرآة الفكر » فتألف من ثلاثين ألفاً من الأبيات على وجه التقريب ، تدور كلها حول الفضائل والذائل .

ثم قصيدته اللاتينية « صوت إنسان يصيح » ، وقد أوحى له بها ثورة الفلاحين في مقاطعة « كنت » عام ١٣٨١ بسبب فداحة الضرائب ، وكان « جور » صاحب أرض في تلك المقاطعة ولا بد أن يكون قد لحقه الأذى .

وظهر في القرن الرابع عشر شاعران آخران هما « جون ليدجيت » John Lydgate و « توماس أوكليف » Thomas Occleve وبعد ذلك تدهور الشعر الإنجليزي قرناً كاملاً هو القرن الرابع عشر ، وأخذت ترد أنغام الشعر الغنائي من الشمال حيث طائفة من الشعراء الأسكتلنديين الذين اقتفوا أثر شوسر دون أن يقتصروا على تقليده ، بل كانت لهم شخصياتهم المستقلة التي زاداها خصوبة واستقلالاً ما أضافوه من ألفاظ اسكتلندية ، وسنستعرض هؤلاء الشعراء بعد قليل .

(ب) كتاب النثر في القرن السابع عشر :

أمسك بزمام النثر في القرن الرابع عشر ثلاثة كتب ، هم « السير چون ماندفيل » و « چون ويكلف » و « جوفري شوسر » ؛ ولم تكن براعة هؤلاء الكتّاب في أدب مبتكر ، بل بدت قدرتهم على الكتابة النثرية فيما ترجموه عن اللغات الأخرى . وسنعرض موجزا قصيرا لسكل منهم .

السير جون ماندفيل Sir John Mandeville :

هذا اسم أطلق إطلاقا على أديب مجهول ترجم عن الفرنسية كتابا عنوانه « رحلات السير چون ماندفيل » ، والراجح أن المؤلف الأصلي لهذا الكتاب طبيب فرنسي اتخذ لنفسه اسم « چون ماندفيل » ليكون ضربا من التنكر الأدبي ؛ ويقول المؤلف عن نفسه إنه أنفق أربعين عاما في خدمة « السلطان » وفي خدمة « الخان الأعظم » امبراطور الصين ، وفي الرحلة في ربوع آسيا و إفريقيا ؛ ويظن أنه نشر كتابه هذا سنة ١٣٥٦ فترجمه بعضهم إلى اللاتينية ، ثم تناوله كاتب آخر فترجمه إلى الإنجليزية ، فجاءت الترجمة مثلا من أروع ما كتب بالإنجليزية في ذلك العهد لما فيه من سلامة وتدقيق ، بل إن هذا الكتاب ليعد من أمتع الآيات في الأدب الإنجليزي كله ؛ ففيه مجموعة من القصص الرائعة ، وهو في مجموعه بمثابة « دليل » يهدي المسافر إلى « الأرض المقدسة » — فالكاتب الفرنسي ، الذي يُطلق عليه عادة اسم « يوحنا ذو اللحية أو يوحنا البرجندي Jean de Bourgogne » ، قد صور هذه الشخصية الخيالية « السير چون ماندفيل » على نحو ما ابتكر « سويفت Swift » شخصية « جَلْفَر » ، وكما خلق « ديفو Defoe » شخصية « روبنسن كروسو » ؛ ثم أطلق السير چون ماندفيل هذا يضرب في الأرض سرحلا من بلد إلى بلد ، فيزور بيت المقدس والصين وغيرها ، ويجمع أثناء رحلته قصصا من أي كتاب يصادفه — يجمعها من كتب الرحلات مثل كتاب ماركو پولو<sup>(١)</sup> ، ومن كتب الحكايات الخرافية ومن كتب الأحلام وغير ذلك ؛ ويذكر للقارئ أعجب ما رأى خلال رحلته ، من

(١) رحلة بندقي مشهور (١٢٥٤ — ١٣٢٤) سافر إلى الصين حيث قابل امبراطورها

ذلك - مثلاً - أنه رأى أهل القاهرة يفتسون البيض بطريقة صناعية ، وأنه رأى شجرة تنتج صوفاً (يتصد القطن) ، ويؤكد للقارىء عقيدته بأن الأرض كروية ، ودليله أنه لو بدأ الملاحون من بلد وساروا بسفينتهم في اتجاه واحد فانهم يهودون من جديد الى البلد الذى بدأوا منه الرحلة ، والألفاظ التى اختارها المترجم غاية فى السهولة كأنما جرت بها يراعة كاتب حديث ، ولذة الكتاب راجعة الى سذاجته وإلى الصور الزاهية المختلفة التى يرسمها آنا بعد آنا .

وشاع الكتاب فى القرنين الرابع عشر ، والخامس عشر شيوعاً عظيماً يدلك على مقداره أن بين أيدينا اليوم ثلثائة نسخة مخطوطة بقيت منذ ذلك العهد ، وقد تواضع بعض النقاد على تسمية «ماندويل» «أبا النثر الانجلىزى» - كما عدَّ شوسر أباً للشعر - لكن هذا اللقب يتنازعه أيضاً «جون ويكلف» و«السير تومس مور» ، على أن النثر الانجلىزى كانت له بدايات عدة ولا يجوز أن ننسب ابتداءه لسكاتب واحد كأننا من كان .

جون ويكلف Gohn Wyclif (١٣٢٤ - ١٣٨٤) :

كان «ويكلف» يمت البابوية مقتاً شديداً ، فحفره ذلك إلى الكتابة ضدها ، ولكنه لم يلبث أن اتهم بخروجه على الدين وحوكم على زندقته سنة ١٣٧٧ ، فأرسل فى حمايته دوق لانكستر قوة مسلحة تصحبه إلى دار المحكمة ، ثم حدث أثناء المحاكمة أن نهض هذا الدوق - وقد أرهفته المناقشات الطويلة - وأعلن أنه لو أدانت المحكمة صديقه «ويكلف» ، فلن يتردد فى أن يجرَّ الأسقف من شعره حتى يخرج من الكنيسة التى كانت تجرى المحاكمة فى حرما ، وعندئذ انفضت الهيئة الدينية التى كانت منعقدة لمحاكمته ؛ ثم حوكم «ويكلف» مرة أخرى لخروجه على الدين أيضاً ونجا من العقاب بفضل «أميرة ويلز» .

وإنما يحتمل «ويكلف» مكانته فى الأدب الانجلىزى لأنه ترجم «الكتاب المقدس» إلى لغة بلاده ، إذ نقل إلى الانجلىزية «العهد الجديد» (الإنجيل) واستعان بآخر Hereford فى ترجمة «العهد القديم» (التوراة) وكانت الترجمة نقلاً عن اللاتينية ، واستطاع أن ينقله إلى نثر قوى سلس مستقيم العبارة - لكن هذا العمل الأدبى الجليل

قوبل من أعدائه بالسخط . حتى إنهم أخرجوا جثمانه من قبره وأحرقوه وذرّوا رماده في نهر قريب .

### شوسر Chaucer

لقد درسنا شوسر شاعراً ، وها نحن نثبت له في النثر أثره ، وإن يكن ضئيلاً إلى جانب شعره ؛ فأول ما نسجله له أنه كتب نثره كله بالإنجليزية لأنه آثر لغته القومية على اللاتينية والفرنسية ، وخير ما أنتج في النثر ترجمته لكتاب « بيثيس Boethius <sup>(١)</sup> » وعنوانه « غراء الفلسفة » ؛ وكذلك كتب نثراً حكاية التيس وحكاية أخرى حكاها هو باعتباره حاجاً من الحجاج في « حكايات كانتبري » .

### (ح) الشعر في القرن الخامس عشر

كان القرن الخامس عشر حقبة مجدية في تاريخ الشعر الإنجليزي لم يكده يشهد نصفه الأول شاعراً واحداً ؛ ثم ظهر في نصفه الثاني ضرب من الشعر هو « الحكايات المنظومة » Ballads ومعظم « الحكايات المنظومة » لم يجد سبيله إلى الكتابة أو الطباعة ؛ بل أخذ ينشده المشدون وينصت إليه السامعون ، معتمدين في روايته على الذاكرة وحدها ؛ على أن هذه « الحكايات المنظومة » لم تحتفظ بصورة واحدة ، وإنما تغيرت وتبدلت حسب الظروف السكنية والمشاعر القومية ، مثال ذلك أن يسمع انجليزي حكاية منظومة عن عشيرة في اسكتلندا ، فيحفظها ثم يرويها في بلده بعد تعديل بعض أجزائها بحيث تناسب للمقام الجديد ، وهكذا تدور الحكاية المنظومة في مختلف الأرجاء فيضاف إليها هنا ويحذف منها هناك ويتعاورها التغيير والتبديل في مختلف البلدان . فتكون في نهاية طوافها شيئاً جديداً اشترك في صياغته عدد كبير من الناس ، وكان المشدون الطوافون يتغنون بالحكايات المنظومة على القيثارة في المدن والقرى والفنادق والحانات والاسواق ، وكان

(١) (٤٨٠ — ٥٢٤ م) فيلسوف وسياسي ، ويعد بعض مؤرخي الفلسفة آخر العصر الروماني وطلبة الفلسفة المدرسية — أي فلسفة العصور الوسطى — وقد شرع بيثيس يترجم أرسطو وأفلاطون ويوفق بينهما لكنه لم يتم ما شرع فيه ، وعلى كل حال فقد أفلح في تعريف أهل العصور الوسطى بأرسطو

لكل حكاية منها نعمة خاصة عرفت بها ، وأحيانا تشترك عدة حكايات في نغم واحد ، وعلى كل حال فقد كانت هذه الحكايات المنظومة تجدد آذاننا مصغية أينما تغنى بها المفسدون أو عثرف ألعانها العازفون على القيثارة ، واختصت كل جماعة من العمال بأغان آثرتها على غيرها وأصبحت كأنها شعار لهم يتغنى بها كل منتسب إلى تلك الصناعة المعينة .  
وجدير بنا في هذا المقام أن نحدد على وجه الدقة ما يراد « بالحكاية المنظومة » في الآداب الأوروبية ، فهي قصيدة قصصية قصيرة ، لقارئها أن يتلوها تلاوة أو يتغنى بها ، وهي مزيج من « شعر الملاحم » و « الشعر الغنائي » . وقد تتخذ بعض الحكايات المنظومة قالباً تمثيلاً فيه حوار بين أشخاص ، وأما موضوع « الحكاية المنظومة » فقد يكون بطولة المحاربين أو معاصرة المحبين أو عجائب بلاد الجن ، والخيال فيها ساذج جامع ، والشعور عميق يصور عواطف الإنسانية بأسرها ، وكثيراً ما تتخير المواقف والمناظر التي تثير في السامعين الحزن والشجن ، تلك هي المميزات العامة للحكاية المنظومة ، على أن بعضها يقوم على أساس من التاريخ مع تغيير في الحوادث من حيث الزمان والمكان والأسماء بحيث لا تسكاد تقبين فيها من الحقيقة التاريخية شيئاً .

وهنا قد يسأل سائل : ومن نظم تلك الحكايات ؟ والجواب أن تاريخ الأدب لا يسمى من شعرائها أحداً . فقد كان في إنجلترا قبل شوسر بقرون عدة طائفة من هذه الحكايات المنظومة ، وأخذت تنتقل من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد ، ويطرأ عليها أثناء انتقالها ما تحدثنا عنه من ألوان التغيير التي تقتضيها مشاعر الناقل أو ظروف المكان المنقولة إليه ، فهي حكايات « نظمها الشعب للشعب » كما يقولون ، وشاعت أمثال هذه الحكايات المنظومة الشعبية في ألمانيا والدينمرك وغيرها من أقطار أوروبا ، ومما يلفت النظر أن معظم الأقصيص التي تروى تلك المنظومات الشعبية مشتركة في مختلف البلاد ، وكما وجد النقاد هذا الأساس المشترك جزموا بقدم المنظومة إلى ما قبل عهد الكتابة ، وكان الناس يتغنون ببعض هذه المنظومات عند الحرث والبذر والحصاد ، ويتغنون ببعضها الآخر عند الزواج ، ويرتلون طائفة منها عند دفن الموتى ، ولبشوا كذلك طوال القرون الثلاثة : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، ومع ذلك فلم تجد سبيلها إلى الطباعة حتى جاء القرن الثامن عشر .

ومن أشهر الحكايات المنظومة مثلاً :

منظومة « سير باترك سپنس » وهي تروى قصة مأساة وقعت في القرن الثالث عشر ،  
وذلك أن ملك اسكتلندة أرسل حملة حربية إلى النرويج عام ١٢٨٥ لتحمل « فتاة النرويج »  
إلى اسكتلندة كي يتزوج منها ولي عهد البلاد ، لكن السفينة تحطمت فوق الصخور  
وحلت بالحملة كارثة فادحة ، ومنظومة « تَشِيْشِي تَشِيْسُ Chevy Chace » تصف رحلة صيد  
قام بها « إيرل نورثمبرلاند » والتقاءه بعصبة « دوجلاس » جاء فيها :

بدأ القتال صبيحة الاثنين

على سفوح « الشُّقِيَات » العالية

مشهدٌ يحزن له الطفلُ وهو جنين

يا لها من مأساة باكية

خسمائة وألف من حملة الحراب الانجليز

لم يَعدْ منهم سوى ثلاثة وخمسين

وألفان من أصحاب الرماح الاسكتلنديين

لم ينج منهم سوى خمسة وخمسين

وفي منظومة « الفتاة السمراء » يجري الحوار بين العاشق ومعشوقته علي نحو جميل ،

وقد قال عنها ناقد إنها أبدع قصيدة التقى فيها الشعر الشعبي والشعر الفنى ؛ والبطل في

هذه المنظومة من أتباع « رُوِيْنِ هُوْدُ » [ وهو رئيس عصبة مشهور في الأساطير ] يحاول

أن يسبر غور معشوقته ليرى مقدار ثباتها على حبه ، فيقول ( ونعتذر للقارئ عما يفقده

الأصل في الترجمة من نعم حلو ولفظ ساس جميل ) :

أنا الفارس ، جئت في الليل الدامس

في سِتْرِ خَفِيّ

أصيح وأحسرتي ، هذى كما رأيتِ حالي

كالمُبْعَدِ المنقِيّ

فتجيب « الفتاة » قائلة :

يا حبيب الفؤاد ، ما الداهي ، ما العادي ؟  
عجّل بربك ما الخبير

فليس لي في النفس ، سواك دون الإنس  
لست أحب إلاك بين البشر

فينبئها أنه قد أتى أسرا وقع به تحت طائلة القانون ، وأنه لا مندوحة له عن الفرار إلى جوف الغابة ، فتعرض عليه أن ترافقه إلى مخبئه من الغابة ، لكنه يبين لها ما عساها أن تواجهه من مشاق وصعاب ، فتصر على أن تشقى في رفقته ، فيذكر لها احتمال أن تجده الشرطة وأن يكون مصيره الشنق ، فلا يكون جوابها سوى أن تكرر « لست أحب إلاك بين البشر » ، فيعترض عليها بأنه لا يطمح في اختطاف ابنة رجل من عليّة القوم ، لكنها تجيبه بأنها لا تستطيع الحياة بعد فراقه ، ثم يلقي بأخر سهم عنده فيعلنها بأنه يحب امرأة سواها أروع منها جمالا ، فلا تتحول الفتاة عن ثباتها ، وعندئذ يفصح لها عن جليلة الأمر قائلا إن ذلك كله لم يكن سوى اختبار يمتحن به حبها له ، ثم يختم اعترافه قائلا :

الآن اسمعي لي ، الى « وستمورلند » سبيلي

فهي ضيعتي

وهناك سوف أدعوك ، خاتماً سوف أهديك

لتكوني زوجتي

ستكونين في صحبتي ، ستكونين زوجتي .

غير مبطىء ، ولا وثيد

إن من اتخذته حبيباً ، لم يكن إلا حسيباً

وما هو بالطريد

ومن هذا المثال تستطيع أن ترى أوضح ما يميز « الحكاية المنظومة » من بساطة الفكرة واستقامة التعبير .

وما دمتنا قد ذكرنا « روبن هود » فجدير بنا أن نتحدث عنه قليلا في هذا الموضع ، إذ كان شخصية دارت حولها « الحكايات المنظومة » حتى بلغ ما كتب عنه عدداً يقرب من الخمسين ، ولسنا ندرى هل كان « روبن هود » شخصاً حقيقياً أو وهمياً ،

فيقال إنه عاش في عهد هنري الثاني ، وإنه كريم المتمد ، غير أنه شرد بحكم القانون لسبب لا ندرية ، وصحبه في تشريده صحبة من الإخوان ، وأووا جميعاً إلى « الغابة الخضراء » حيث يصيدون غزلان الملك ، ويسطون على الأغنياء ، ويعاونون الفقراء ، كصالحيك العرب ، واشتهروا برقتهم وعظفهم على الأطفال والنساء ، ولم يلبث « روبن هود » أن أصبح رمزاً يشير به الناس إلى كراهيتهم لما كان سائداً عندئذ من قوانين حددت بها الحكومة حق الصيد في الغابات .

هكذا كان للحكايات المنظومة شأن أى شأن في القرن الخامس عشر . تصدر من قلوب الناس في غير تكلف ولا تصنع ، تتحدر على الشفاه جيلاً بعد جيل ، لكن نشأت المطبعة وشاعت الطباعة فزالت « الحكاية المنظومة » شيئاً فشيئاً ، ذلك لأن أصحاب المطابع شرعوا ينشرونها مطبوعة ، فاستأجروا لها الشعراء يصلحونها فأفسدوها ، وزال عنها ما كان طابعاً مميزاً لها ، وهو السذاجة والبعد عن التكلف .

\* \* \*

وظهرت في القرن الخامس عشر طائفة من الشعراء الاسكتلنديين قرضوا الشعر بلهجة بلادهم — واللهجة الاسكتلندية لون من الإنجليزية أصابها بعض التغيير ، وليست هي لغة مستقلة قائمة بذاتها<sup>(١)</sup>

وأول من استخدم اللهجة الأسكتلندية في قرض الشعر ملك اسكتلندي شاعر هو جيمس الأول ( ١٣٩٤ — ١٤٣٦ ) وقد اعترضته في حياته مأساة أليمة ، ذلك أن عمه حبس عن أخيه القوت حتى مات ، فخشى أبوه أن يصيب ابنه جيمس ما أصاب أخاه فأرسله إلى فرنسا في طي الخفاء لينجوه به من براثن عمه ، لكن سفينة إنجليزية وجدته في طريقه إلى الفرار . فقبضت عليه وعادت به إلى لندن حيث زج به في « البرج » وفي غيره سجيناً مدى ثمانية عشر عاماً ، غير أنه لم يلق عنقاً في سجنه . وجاء له ساجنوه بمن يتعهد بالتعليم والتثقيف ، فشجعه هؤلاء على دراسة آيات الفن والأدب ، وقد أعجب

(١) في اسكتلندة توجد ثلاث لغات : الإنجليزية والاسكتلندية والارسية Erse . والاسكتلندية كما ذكرنا في النص إنجليزية الأصل وهي منتشرة في السهول وأما الإرسية فلهجة كلتية يتحدث بها سكان الجبال وهي بعيدة عن الإنجليزية كل البعد .

الطالب السجين بشوسر وجور ولدجت ، حتى أطلق عليهم « القادة » ، وأنشد وهو في سجنه قصيدة عنوانها « كتاب الملك » تذكراً لسيدة تزوج منها فيما بعد ، وقد اغتيل في قلمته بعد زواجه بثلاثة عشر عاماً ؛ وكان جيمس في قصيدته تلك متأثراً بشوسر ، وفضل تلك القصيدة نشأت في اسكتلندة طائفة من الشعراء تنسج على المنوال نفسه في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، فبحر القصيدة هو نفس البحر الذي آثره شوسر ، وهو الذي يقسم القصيدة مقطوعات كل منها تتألف من سبعة أسطر تجرى قوافيها على هذا النحو : ١ - ١ - ١ - ١ - ١ - ١ - ١ - ١ .

وقيل عن جيمس إنه « خير من أنشد الشعر بين الملوك وخير من تولى الملك بين الشعراء » .

روبرت هنريسون Robert Henryson (١٤٣٠ - ١٥٠٠)

كان في زمرة الشعراء الأسكتلنديين الذين اقتفوا أثر شوسر ، وقد كتب « وصية كرسدا » يعقب بها على قصة شوسر « ترويتس وكرسدا » كما كتب « حكاية أورفيوس » وقصيدة « روبن وماكين » وهي حوار لطيف بين راع وراعية ، وهذه القصيدة لها شهرة في تاريخ الأدب الإنجليزي من « الشعر الريفى » ، على أن أوضح ما امتاز به « هنريسن » هو نظمه الخرافات إيزوب<sup>(١)</sup> ، وقد استطاع أن يقصها في شعر سلس جذاب تشيع فيه الفكاهة على نحو لا يقصر فيه باعا عن « لافونتين » كاتب الخرافات الفرنسى الذى بعده العالم أجمع أمير هذا اللون من الأدب .

وتبدأ مقدمة « الخرافات » بحلم يظهر فيه « المستر إيزوب أمير الشعراء » وينبىء « هنريسن » أنه ( أى إيزوب ) من أسرة نبيلة وأن موطنه الأصيل مدينة روما ثم يأخذ في رواية حكاياته الخرافية .

(١) إيزوب كاتب يونانى فى القرن السادس قبل الميلاد وهو صاحب الحكايات الخرافية المشهورة

ولهم دنبار William Dunbar (١٤٦٠ — ١٥١٣)

لو استثنيت « بيرنز Burns<sup>(١)</sup> » ، كان « دنبار » أعظم شاعر أنجبتته اسكتلندة في كل عصورها ، وهو بغير شك أفضل من شهده الأدب الإنجليزي بين شوسر وسبنسر . أراد له ذوه منذ نعومة أظفاره أن يكون للكنيسة ، حتى اعتادت صريته أن تطلق عليه « الأسقف الصغير » ، فلما فرغ من دراسته الجامعية وظفر بالأستاذية في الآداب عام ١٤٧٩ ، اتصل بطائفة دينية معينة تحتم على عضوها أن يجوب البلاد سائلا . فأخذ يرتحل من بلد إلى بلد يعظ ويطلب الإحسان . لكنه لم يلبث أن ضاق ذرعاً بهذه الحياة وانسلخ عن تلك الطائفة ، بعد أن أفاد خبرة واسعة من تجواله ، وخالط أفراداً من أعلام القوم ، وجمع بملاحظته الدقيقة تجارب عن دقائق الحياة وبواطن النفوس ، كانت خير عون له حين شرع في إنشاء شعره .

كان « دنبار » قد بلغ الثلاثين من عمره حين هجر حياته الدينية ، والتحق بخدمة القصر الملكي في اسكتلندة ، وبعث في بعوث سياسية كثيرة إلى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا ، ولا شك أنه زار لندن فيما زاره من بلدان خلال رحلاته ، ولما دنا القرن الخامس عشر من ختامه استقر به المقام في أدنبره ، وظل على اتصاله بالقصر ، حتى أصبح أميراً للشعراء ، وعرف في إنجلترا باسم « رب القوافي في اسكتلندة » ؛ ثم حدث عام ١٥٠١ أن أرسل عضواً في سفارة بعث بها إلى لندن لتفاوض في زواج جيمس الرابع من « صرغريت<sup>(٢)</sup> » — وهي من أسرة تيودور المالكة في إنجلترا إذ ذاك — وتم الزواج فعلا عام ١٥٣٠ ، فأنشأ دنبار قصيدة جميلة تكرر يمناً لهذه المناسبة عنوانها « الحسك والوردة » ، وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين الشاعر والملكة ، ووضعته الملكة في رعايتها ، ولبث الشاعر متصلاً بالقصر حتى خرج مع الملك في موقعة حربية عام ١٥١٣ ،

(١) أعظم شعراء اسكتلندة (١٧٥٩ — ١٧٩٦) .

(٢) وحد هذا الزواج بين الأسرتين المالكتين في إنجلترا واسكتلندة ، وظهرت هذه الوحدة في شخص جيمس السادس ، ملك اسكتلندة وحفيد صرغريت تيودور ، إذ أصبح هو نفسه جيمس الأول ملك إنجلترا ، وكان ذلك بعد زواج صرغريت من ملك اسكتلندة بمائة عام .

وهنا تختلف الرواية ، فمن قائل إنه لاقى منيته في تلك الموقعة ، ومن قائل إنه اختفى حياً حتى مات عام ١٥٣٠ ، والرواية الأولى أقرب إلى الصواب .

وأجود قصائده : « الحسك والوردة » و « الدرع الذهبية » و « رثاء الشعراء » ، و « رقصة الخطايا السبع الفاتكة » ، وتعد هذه الأخيرة آية شعره ، ففيها قوة في التعبير وروعة في التصوير ، فضلاً عما تمتاز به من رشاقة وتنوع وفكاهة ودراسة دقيقة لطبائع البشر ، وكان « دنبار » في معظم شعره متأثراً بشوسر ، واختار لبعض قصائده البحر الذي كان كثيراً ما يستخدمه شوسر ، وقد تقدم وصفه ، وهناك نموذجاً نقتطفه من قصيدة « الحسك والوردة » :

لما انقضى مارس برياحه الهوج  
وأقبل إبريل برذاذه الفضي  
وهب على الطبيعة بريح من الشرق  
وأعقبه مايو الزاخر بالأزاهير  
انطلق الطير مغرداً  
بين الورود الشذية أبيضها وأحمرها  
فكان اتساق ألحانها متعة للسامعين

كنت نائماً في مخدعي حتى الصباح  
فجئتُ فلق الفجر بأعين من بلور  
يطل من نافذتي لمبداً النهار  
ويحييني بوجه فيه خضرة وشجوب  
وعلى كفه قبرة تغرد له تغريداً متلاحقاً  
« قم ، انهض ، هب من نعاسك  
انظر كيف انتعش الصباح الزاخر بالحياة »

وظننت « مايو » النضر أمام مخدعي قائماً

في ثياب ازادنت بشقي الأصباغ ،  
رزينا هادئا يفيض بمنفوان الحياة  
يتافع بثوب ناصع من نضر الزهور  
ذوات الأصباغ الفاتنة ، بيضاء ، حمراء ، قاتمة ، زرقاء  
يعاوها الندى وتصبغها أشعة الشمس بلون عسجدي  
فتشيع في الدار كلها أضواء شعاعها

هاوية دوجلاس Gawain Douglas (١٤٧٤ - ١٥٢٢) :

ظفر «دوجلاس» بدرجة الأستاذية في الآداب من جامعة «سنت أندروز» - وهي الجامعة التي تخرج فيها عدد كبير من أعلام اسكتلندة - وهو في العشرين من عمره ، ثم عين في منصب ديني ، لكن طوائف الدين وأحزاب السياسة لم تلبث أن نشب بينها نزاع عنيف ، ففر شاعرنا هاربا إلى انجلترا قاصدا لندن ، وما أقام طويلا في تلك المدينة حتى تفشى بها الطاعون ففضى عليه .

وله في الأدب ثلاثة آثار تستحق الذكر ، وهي « قصر الشرف » و « القلب الملك » وترجمة « الانياذة » - أما القصيدتان الأوليان فتتخذان أسلوب الرمز وتتبعان الطريقة التي سادت في الأدب الإنجليزي ، بل في معظم الأدب الوسيط في أوروبا كلها ، منذ القرن الثاني عشر ، وأعنى بها طريقة الحلم ، فيأخذ الشاعر نعاس ذات صباح من شهر مايو الجميل إذ هو سائر في حديقة غناء . ويرى في حلمه آلهة ينبئونه كيت وكيت .

وقصيدة « القلب الملك » قصة الصراع بين البدن والروح ؛ وأما آيته الكبرى التي استحق بها الذكر في تاريخ الأدب فهي ترجمته للانياذة إذ أبدى براعة عظيمة في نظاها ؛ ولقد قدّم لسكل جزء من الملحمة بقصيدة مبتكرة ، وفي هذه المقدمات الشعرية أظهر الشاعر نبوغه ؛ ومما هو جدير بالذكر - في هذا الصدد - أن هذه الترجمة لانياذة فيرجيل كانت أول ما نقل الى الإنجليزية من الأدب اللاتيني ؛ وقد استخدم « دوجلاس » في ترجمته القافية المزدوجة .

وهذه أبيات - في الشمس - مأخوذة من مقدمته للأغنية الثانية عشرة من الانياذة

مرحباً ربة الضياء ومصباح النهار  
مرحباً مُنشئة العشب الأخضر الرقيق  
مرحباً مُسرعة النماء في الزهور ذات البريق  
مرحباً ربة الكروم والجذور كلها  
مرحباً مُنضجة الحَبِّ والنفاكهة بكل صنوفها  
مرحباً يا مأوى الطير فوق الغصون  
مرحباً يا من لسلطانه تدين السنون  
مرحباً يا صابغة المروج المزهرة  
مرحباً يا روح الحياة المثمرة  
مرحباً يا كافلة البقاء لكافة الحيوان  
مرحباً بشعاعك الوهاج وكلنا به فرح نشوان

( ح ) النثر الانجليزي في الفروع الخامس عشر وأوائل السادس عشر :

الشعر أسبق من النثر ظهوراً في آداب العالم كلها ، لكن النثر لم يبسط في بلد  
مثلاً أبطاً في إنجلترا ، فقد لبث الشعر قائماً وحده قروناً عدة قبل أن تبدأ الكتابة النثرية ،  
لهذا قد يسارع القارئ إلى الحكم بأن القرن الخامس عشر الذي أجذب في الشعر  
الانجليزي ، لا بد أن يكون أشد إجداباً في النثر ، لأنه إذا تراكمت حركة النهوض  
بالشعر ، فالأرجح أن تتلصق معها نهضة النثر ؛ لكن عاملاً جديداً نشأ في القرن  
الخامس عشر كان من جرائه أن تغيرت أوضاع الأمور ، ذلك أن بدأت المطبعة حياتها  
في إنجلترا في القرن الخامس عشر على يدي « وليم كاستن » ؛ والطباعة أفعل أثراً في  
نشر النثر منها في استنهاض الشعر ، لأنها تعمل على بذور العلم والعرفان ، وما أداة العلم  
سوى الكتابة النثرية ؛ أضف إلى ذلك أن صاحب المطبعة إن أراد لبضاعته رواجاً عمد  
إلى نشر ما يصادف الهوى عند عامة الناس كالقصص ، أما الشعر فأدب أرسقراطي إلى  
حد ما ، لا يقبل على قراءته إلا فئة قليلة ، فالأرجح — إذن — أن تبدأ المطبعة بنشر  
المنثور قبل المنظوم ، وفي هذا ما فيه من تشجيع الأدباء على الكتابة نثراً .

شهد القرن الخامس عشر بداية قوية في النثر تمثلت في كتاب «مير تومس مالورى» «موت آرثر»، إلا أن النثر برغم هذه البداية الحيدة لم يقنع، فأخذ يوجد ويوجد حتى إذا ما شرع بيكن في ختام القرن السادس عشر يكتب «مقالاته» كان قد انتقل النثر من العبارة الفضفاضة القصصية المنحلة المسككة إلى الجمل القصيرة الواضحة المركزة المصقولة. وسنعرض فيما يلي أنبغ النثرين في ذلك العهد.

### سير تومس مالورى Sir Thomas Malory (١٤٣٠—١٤٨٠)

لسنا ندرى من حياته إلا قليلاً؛ وحسبنا علماء به أنه كاتب الآية الخالدة «موت آرثر»؛ وهذا الكتاب المشهور مقتبس من الحكايات الفرنسية القديمة التي رويت عن «الملك آرثر» الذي اتخذه سكان إنجلترا وشمال فرنسا معاً بطلاً في أساطيرهم، وتكون قصصه في مجموعها شيئاً أقرب ما يكون إلى الملحمة التي تدور حول حياة ذلك الملك وموته، وتروى الأعاجيب عن بطولة فرسانه الذين يطلق عليهم «فرسان المائدة المستديرة»؛ وفرغ الكاتب من كتابه هذا عام ١٤٧٠ وطبعه «كاكستن» سنة ١٤٨٥، ونثر الكتاب يتميز بالأسلوب القصصى والبساطة القوية؛ ولم يبق كتاب من الرواج بين قراء القرن السادس عشر ما لقيه هذا الكتاب، ثم أصبح فيما بعد مصدراً استقى منه كثير من الكتاب الإنجليز مادة أدبهم.

وهذا نموذج نقتبسه منه يدل بعض الدلالة على أسلوب مالورى:

كيف حصل «آرثر» بمعونة «مراين» على سيفه «إكسكالبتره» من «سيدة البحيرة» «رحل الملك يرافقه زميله، وبلغا راهباً في صومعته وكان رجلاً صالحاً؛ فأخذ الراهب يفحص للملك جروحه ثم أعطاه لها بلسماً شافياً؛ ومكث الملك عنده ثلاثة أيام التأمت فيها جروحه التماماً يمكنه من الركوب والسفر؛ فاستأنف السير؛ وبينما هما في الطريق راكبين، قال آرثر «لست أحمل سيفاً» فأجاب «مراين»: «على مقربة منا سيف سيكون سيفك لو استطعت إلى ذلك سبيلاً» ولبثا راكبين حتى أقبلتا على بحيرة نقية الماء فسيحها الأرجاء؛ ورأى آرثر في وسطها ذراعاً حولها كساء أبيض وفي قبضتها سيف جميل؛ قال «مراين» انظر! ذلك هو السيف الذي حدثتك عنه» ثم ما لبثا أن

شاهدا فتاة تسير فوق ماء البحيرة ، فسأل آرثر : « من تلك الفتاة ؟ » فقال « مريين » : « تلك سيدة البحيرة ؛ وإن في جوف البحيرة لصخرة » وإلى جوارها مكان كأجل ماترى فوق الأرض من مكان ؛ وستأتيك تلك الفتاة بعد حين قصير ؛ فلاحظها في الحديث تمنحك ذلك السيف » ؛ وما عثمت الفتاة أن أقبلت نحو آرثر وحيته . فرد لها التحية ثم قال : « أيتها الفتاة ! ما ذلك السيف الذى ارتفعت به تلك الذراع فوق سطح الماء ؟ وددت لو كان سيفي لأنى لأحمل سيفاً » فأجابت الفتاة « أيها الملك آرثر ، إن السيف سيفي ، وهو لك إن وهبته هبة حين أطلبها » فقال آرثر : « أقسم لك بشرفى أنى معطيك تلك الهبة التى تطلبين » فردت الفتاة : « اذهب إذن فى ذلك الفلك وادفنه بالمخداف حتى تبلغ مكان السيف ، نخذ مصحوبا بضمه ، وسأطاب هبتي حين تسبح لى فرصة لذلك » ، فترجل سير آرثر ومريين وربطوا جواديهما إلى شجرتين وأقاما بالسفينة حتى إذا ما بلغا مكان السيف الذى ارتفعت به اليد أمسكه السير آرثر بمقابضه وعاد به ، وعندئذ غاصت الذراع وغاصت اليد فى جوف الماء ، ثم بلغ الرجلان الشاطئ وامتطيا الجوادين وأخذا فى المسير .

ذلك هو الكتاب وهذا مثال منه ، ولستأ نذكره إلا ذكرنا معه القصيدة الرائعة التى كتبها « تنسن » - الشاعر الإنجليزى فى القرن التاسع عشر - وعنوانها « أناشيد الملك » وهى مستمدة من هذا الكتاب ، بل لم يفعل « تنسن » فى بعض أجزائها سوى أن حول نثرها إلى نظم جميل .

السير تومس مور Sir Thomas More (١٤٧٨-١٥٣٥)

ولد فى لندن ، وتعلم فى أكسفورد ، وهناك تملكته رغبة شديدة فى دراسة اليونانية ، ولما كان فى عامه العشرين ربطته أواصر الصداقة بالعالِم الهولندى الذائع الصيت « إريزم » وأخذوا يتراسلان ما بقيا على قيد الحياة ؛ وقد اختير « مور » عضواً فى البرلمان سنة ١٥٠٤ نائباً عن جزء من مدينة لندن ؛ واتصل فيما بعد بالملك هنرى الثامن ، ثم أخذ يعول فى مناصب الدولة صعباً ، حتى إذا ما سقط « ولزى » - كبير الوزراء فى عهد هنرى الثامن - تولى مكانه « تومس مور » ؛ لكنه لم يلبث أن لمح فى

الجو السيامي مشكلات مضلات تنشأ من طلاق الملك لزوجته كاترين ، فاعتزل منصبه وأوى إلى الريف ؛ غير أن الملك هنري الثامن حمل البرلمان على أن يدعو كل من تولى الوزارة في الماضي إلى جانب من كانوا يتولونها عندئذ ، ليقسم الجميع بين الإخلاص لقانون أصدره إذ ذاك يعلن فيه أن زواجه من الملكة كاترين لم يكن زواجا شرعيا ، وأن رئاسة البابا أصبحت منسوخة ملغاة في البلاد ؛ فرفض « مور » أن يقسم كما طلب إليه ، فلم يتردد الملك في إعدامه .

وأشهر ما خلفه لنا « مور » هو كتابه المعروف « يوتوبيا »<sup>(١)</sup> — أي المدينة الفاضلة — وقد نشره باللاتينية أول الأمر سنة ١٥١٦ ، ثم ترجم إلى الإنجليزية عام ١٥٥١<sup>(٢)</sup> ؛ وأهم ما كتبه « مور » بالإنجليزية كتاب « تاريخ ادورد الخامس ورشارد الثالث » ، كتبه سنة ١٥١٣ لكنه لم ينشر إلا سنة ١٥٤٣ .

ويتحدث « مور » في كتابه « يوتوبيا » على لسان رحالة جاب البلاد وطوف ، ثم ألقى صراسيه في تلك الجزيرة الخيالية ، وأخذ يصف لنا أوضاع الحياة الصميمة فيها فاستطاع في سياق قصته أن يعرض صورة واضحة لأوجه الإصلاح التي كانت بلاده في أمس الحاجة إليها .

لاريب في أن « مور » استوحى في كتاب « يوتوبيا » جمهورية أنلاطون ، كما أوحى بدوره لبيكن أن يكتب « أطلنطس الجديدة » ولغيره من الكتاب أن يكتبوا أحلامهم في مستقبل الإنسانية على هذا النحو من الخيال .

إنه ليتعذر عليك أن تفهم روح النهضة بمعناها الصحيح ، إلا إذا ذكرت أن العصر كان عصر كشف عن قارة جديدة كما كان عصر استكشاف للتراث الأدبي القديم ، وما عساه أن يحدث في النفوس المستنيرة من لذة ومتاع ؛ فشهدت النهضة أعظم الرحالة وأنبغ الشعراء في آن معا ؛ فكان من الطبيعي لأديب أنقضت ظهره سيئات عصره ، وأخذ يجيل البصر لعالمه واجد المجتمع الإنساني أملا جديداً . من الطبيعي لأديب النهضة

(١) كلمة « يوتوبيا » مركبة من لفظين يونانيين معناهما « لا مكان » أي أن الكتاب يروي قصة بلد خيالي لا وجود له ثم استعملت في معنى المدينة المثالية .

(٢) ترجمه إلى الإنجليزية « رالف روبنسن » Ralph Robinson

— وتلك حاله — أن يطير على جناح الخيال إلى إحدى تلك الجزائر القصية التي كشف عنها المغاسرون ؛ فهناك إذن في جزيرة جديدة وقع الشاعر بخياله فوجد مجتمعا سعيدا ، وواجبه أن يصفه لبني قومه لعلمهم يسلحون ما في أنفسهم من فساد .

### المؤرخون :

كان التاريخ مجال الناثرين منذ نشأ النثر في الأدب الإنجليزي ، وقد بدأ مزيجا من الحقيقة والأساطير ، ثم تطور وسار نحو الدقة شيئا فشيئا حتى بلغ في ذلك شأواً بعيداً في القرن الخامس عشر والنصف الأول من السادس عشر ، وهو العهد الذي نتحدث الآن عنه ، وتولت كتابته جماعة من المؤرخين لا نرى المقام يتسع لذكرهم .

### هيولانمر<sup>(١)</sup> Hugh Latimer (١٤٩١ — ١٥٥٥)

ومن الناثرين في ذلك العهد « هيولانمر » الذي تخرج في جامعة كبردرج عام ١٥١٠ ؛ والتحق بمناصب الكنيسة قسيساً فأسقفا ؛ وقد جاهد في سبيل الإصلاح الديني في عهد الملك ادورد السادس ؛ فلما وليت العرش الملكة ماري زُجَّ في برج لندن ثم أحرق .

ويتألف إنتاجه الأدبي من « عظات دينية » كتبها في أسلوب ينبض بالحياة ولا تشوبه شائبة من حذقة علمية ، فهي أقرب إلى الحديث وأدنى إلى السمر الخفيف ، فأسلوبه في « عظاته » على نقيض الأسلوب اللاتيني القديم ؛ إذ هو يميل دائماً إلى البساطة واستقامة التعبير والجدة ويؤثر قصار الجمل على طواها .

والعبارة الآتية مثال نسوقه دليلاً على وضوح أسلوبه واستقامة عبارته وبعدها عن التواء التركيب .

« كان أبي مزارعاً لا يملك أرضاً ، فكل ما لديه مزرعة تدر عليه ثلاثة جنيهات

(١) « لاتمر » تحريف لكلمة « لاتنر Latiner » ومعناها مترجم اللاتينية ؛ وقد كان يعرف بفهمه اللاتينية بصفة خاصة مع أنه كان يعرف كذلك الفرنسية والأسبانية والإيطالية ؛ ولقبوه « لاتنر الملك » أي « مترجم الملك » .

أو أربعة كل عام على أكثر تقدير؛ وكان يجيد فلاحتها بحيث تكفي غلتها طها ما استتة رجال؛ وكان يملك حظيرة تسع من الأغنام مائة، وكانت أمي تحلب ثلاثين بقرة... . . . . . لقد بعث بي إلى المدرسة وإلا ما استطعت أن أعظ الآن بين يدي -جلالة الملك» .

روجر أسكام Roger Ascham (١٥١٥ - ١٥٦٨)

ومن كتاب النثر أيضا في النصف الأول من القرن السادس عشر «أسكام» وهو مشهور بكتابه في الرمي بالسهام وفي التربية، تخرج في جامعة كمبريدج حيث انكب على دراسة اليونانية وتدريسها لطلاب العلم، وقد أنعم برمي السهام منذ صغر شبابه، وألف فيه كتاباً قدمه إلى الملك هنري الثامن وله من العمر ثلاثون عاما؛ فصادف الكتاب عند الملك قبولا حسنا وقرر لكاتبه راتباً سنوياً لا بأس به؛ وبعد ذلك بثلاثة أعوام عين سربيا للأميرة اليمصابات التي كانت في دراستها ذكية جادة، وخصصت لقرأة اليونانية على أستاذها بضع ساعات كل يوم. وأما كتابه الثاني فهو موضوعه التربية وعنوانه «المعلم» ولم ينشر إلا بعد موت كاتبه؛ وعلى الرغم من تعمق أسكام في دراسة اليونانية، كان يؤثر في كتابته الألفاظ الإنجليزية الخالصة، على الكلمات المزوقة الثقيلة المشتقة من اللاتينية واليونانية، وكان يسمى مثل هذه الألفاظ «ألفاظ الحبرة» يريد بذلك أنها نتيجة الدراسة العلمية لأثمة للحياة الشعبية؛ وقد كتب في مؤلفه عن رمي السهام يقول: «أنا أكتب في هذا الموضوع الإنجليزي باللغة الإنجليزية ليقراء الإنجليز». وفيما يلي عبارة مأخوذة من هذا الكتاب، يعلل بها ما أصاب رياضة الرمي بالسهام من تدهور.

«أما صفار الأطفال فلا يمارسون؛ وأما الشباب فخوفهم من يكبرونهم لا يجرؤون؛ والعقلاء من الرجال لا اشتغالهم بما هو أهم لا يريدون؛ والشيوخ لمجزئ في قواهم لا يستطيعون، والموسرون جسما لا يبالون؛ والفقراء لنفقاتها وتكاليفها لا يتدرون؛ وأرباب الأسر هم لا يأمهون؛ والخدم يمسخهم سادتهم في المنازل معظم الوقت فهم على تركها سرغمون؛ والصناع يكدحون لكسب القوت فالقراغ لا يجدون؛ ويبدوها

كثيرون ثم تعوزهم المهارة فلا يمضون ؛ وفئة كبيرة من الرماة يمهرون فيها ثم يهبون ؛  
فصامة الناس — لهذا السبب أو ذلك — عن الرماية يرغبون «<sup>(١)</sup>

(٥) المسرحية وكتابتها في عصر النهضة :

تستمد المسرحية أصولها من الطبيعة البشرية ذاتها ؛ فالأطفال يحبون « التمثيل »  
بطبعهم ، فيمثلون في لعبهم ألوانا من الحياة المحيطية بهم ؛ تراهم مرة يلعبون دور البائع  
والشاري ، ومرة أخرى يلعبون دور الجنود المحاربين يتقاذفون الأحجار وهكذا ؛  
فاللعب والحديث والضحك عناصر الملهاة ؛ والفعل والحديث والبكاء عناصر المأساة .

وقد نشأت المسرحية الإنجليزية أول ما نشأت في الشمائر والطقوس الدينية ؛ ففي  
وقت أن كانت الكثرة الغالبة من الشعب الإنجليزي تجهل القراءة ، أخذ رجال الكنيسة  
يعلمونهم ما جاء في الكتاب المقدس من أنباء وحوادث بتمثيلها ، فيلبس رجل الدين  
ثياباً معينة ترمز لشخص ورد ذكره في الإنجيل ، ثم يتحرك ويتكلم على نحو يصور  
للناس ما يريد تصويره لهم ؛ فنتج عن هذا التمثيل الديني نوعان من الرواية التمثيلية ؛  
أولها شئت فقل لوانان من نوع واحد : « روايات الألغاز الغامضة »<sup>(٢)</sup> و « روايات  
المعجزات »<sup>(٣)</sup> — أما رواية « اللغز الغامض » فتدور حول أشخاص الكتاب المقدس  
وأحداثه ؛ وأما « رواية المعجزة » فتوضح ما لقيه القديسون الصالحون إبان الحياة من  
حوادث ؛ وأول ما كتب من روايات الألغاز الغامضة كتب ومُثّل باللاتينية ، وكانت  
الكنائس نفسها مسارح التمثيل ، ورجال الكنيسة هم الممثلون .

أما « رواية المعجزة » فقد بدأت في أوائل عهد الملك إدورد الثالث ( ١٣٢٧ —  
١٣٧٧ ) تُمثّل بالإنجليزية ؛ واختاروا لتمثيلها أعياد الكنيسة التي كانت أيام عطلة للسادة  
والدهاء والأغنياء والفقراء على السواء ؛ وموضوعها — كما قدمنا — أبناء القديسين  
ومعجزاتهم ، والقائمون بتمثيلها رجال الكنيسة أنفسهم ؛ لكنها أخذت — على صر

(١) حاولنا أن نقل بهذا التشابه في نهايات الجمل تشابها في الأصل الإنجليزي نشأ عن وضع كلمة  
الني « Not » في آخر كل جملة .

الزمن — تنتقل من أيدي رجال الدين إلى « نقابات العمال في المدن » ؛ فكانت كل نقابة تُعدُّ لنفسها مركبات تسير الواحدة منها على أربع عجلات أو ست ؛ وتقيم فوق كل عربة بناءً من طابقين ؛ في أسفلها يرتدى الممثلون ثيابهم ويصبنون وجوههم ، وفي أعلاها يمثلون الرواية التي أعادوها ، وما نظارتهم إلا جمهور الناس في الطريق ؛ فإذا ما فرغوا من تمثيلها في مكان ، انتقلت بهم العربة إلى مكان آخر حيث يعيدون تمثيلها وهكذا ؛ فكانت المدينة كلها مسرحاً واحداً عظيماً في العراء ؛ وكان الناس يقبلون على رؤية التمثيل مؤثرين هذه المتعة على أعمالهم ؛ وكثيراً ما كانت تشترك عدة مركبات في تمثيل رواية واحدة ، فتقف متباعدة بعضها عن بعض لتمثيل كل منها مكاناً معيناً من الأماكن التي وقعت فيها أحداث الرواية ؛ فإن كانت القصة طويلة ذات حلقات متتابعة كان الأغلب أن تشترك في تمثيلها عدة نقابات ، فتقوم كل نقابة بتمثيل حلقة واحدة ؛ فمثلاً جرى العرف في أحد الأعياد أن يقوم « دباغو الجلد » بتمثيل « سقوط الشيطان » ثم يقوم « البرازون » بتمثيل « خلق العالم وسقوط الشيطان » ثم يمثل « السقاؤون » قصة « الفيضان ونوح » — وكان على كل نقابة أن تعد الأثاث والثياب وغير ذلك مما يطلب لتمثيل الحلقة الخاصة بها ؛ مثال ذلك ، أن يعد الذين يمثلون أرواح الصالحين ( في رواية « يوم الحساب » ) جلوداً بيضاء يكتسبون بها رمزاً للطهر والنقاء ؛ وأن يعد الذين يمثلون أصحاب النار ثياباً من التيل يلونونها بأصباغ سوداء وصفراء وحمراء لتوحى إلى الناظرين بنار الجحيم .

وقد بقي لنا حتى اليوم مثال من « رواية المعجزة » في أول مراحلها — أعني حين كانت تمثل داخل الكنيسة — عنوانها « القديس نقولا » كتبت باللاتينية في القرن الثاني عشر بقلم كاتب إنجليزي يسمى « هيلاريوس Hilarius » وكانت تمثل هذه الرواية في الكنيسة التي بنيت تمجيداً لذكري القديس نقولا ؛ ففي عيد مولده كانوا يلون تمثال القديس من مكانه في الكنيسة ليحل محله في الضريح ممثل يرتدى ثياباً شبيهة بالثياب التي يكتسبها القديس في تمثاله ؛ وتقف الصلاة والشعائر القائمة يومئذ فترة قصيرة ، يدخل فيها « وثنى » غني فاخر الثياب ، ويضع كنزهِ الثمين إلى جوار الضريح ويدعو القديس أن يرعى الأمانة أثناء غيابه في رحلة يعتمز القيام بها ؛ ثم تدخل جماعة من اللصوص وتلوذ بالكنز

هاربة ؛ وبعدها يعود الوثني فلا يجد أمانته ؛ فيرفع سوطا في يده ويشرع في الهوى به على القديس جزاء ما أهمل ؛ وهنا يتحرك التمثال ( هو في الحقيقة مثل يتف مكان التمثال ) وينفاد المكان ويتحدث إلى اللصوص حيث هم ؛ فيفزع اللصوص إذ يرون القديس قد ارتدت إليه الحياة ؛ ويعيدون الكنز المسروق .

وكذلك لدينا من « روايات المعجزة » في طورها الثاني — أي حين انتقلت إلى أيدي نقابات العمال تمثلها في الطرق بدل الكنائس — مجموعات أربع سميت بأسماء المدن التي كانت تنتجها وتمثلها ، وهي :

مجموعة « يورك » وقوامها ثمان وأربعون رواية كتبت في منتصف القرن الرابع عشر ؛ ومجموعة « ويكفيلد » وتشتمل على اثنتين وثلاثين رواية كتبت في منتصف القرن الخامس عشر ؛ ومجموعة « كفنترى » وتحتوي على اثنتين وأربعين رواية كتبت في القرن الخامس عشر ؛ وأخيراً مجموعة « تشستر » وفيها أربع وعشرون رواية كتبت في ختام القرن الخامس عشر .

وقد كتبت هذه الروايات في أبحر متباينة أشد ما يكون التباين ؛ تلتزم القافية أحياناً والجناس أحياناً ؛ وترى فيها مقطوعات غنائية ترد في السياق آنأ بعد آن ؛ وكانت هذه المدن الأربع تستعير الروايات بعضها من بعض ، لكننا نستطيع القول بوجه عام إن كل مدينة منها استقلت بمجموعاتها وتميزت بها .

كانت الأعياد الدينية — كما أسلفنا — أهم المناسبات لتمثيل هذه الروايات التي توضح مناظر الكتاب المقدس وتبين معجزات القديسين ؛ لكنهم لم يقتصرُوا على تلك الأعياد ، بل كانوا يتهزون غيرها من المناسبات كحفلات الزواج ، وزيارات الملوك وسفر الحجاج إلى فلسطين وغير ذلك من أيام يحتشد فيها الناس ؛ وكانت المادة أن تكس الشوارع في أمثال تلك الأيام وتزين بالأعلام وأكاليل الزهر والشموع والمصابيح وغير ذلك ؛ وإن يوماً من هذه الأيام ليضرب مثلاً لما امتاز به من زينة ؛ وذلك أن أهل لندن كانوا قد أساءوا إلى رتشارد الثاني ، فأرسل إليهم الملك أنه قد عفا عنهم وأنه معتزم زيارة لندن في موعد حدده لهم ( ٢٩ أغسطس سنة ١٣٩٣ ) فبذل أهل

لندن كل ما في وسعهم لتمجيد ذلك اليوم استرضاء للمليكهم ؛ فأخذت نقابات العمال واحدة بعد أخرى تسير في شوارع المدينة مرتدية أنغر الثياب ، ويحيط بها الأقرام والعمالقة ، وتحمل معها أمساخاً وصنوفاً من غريب الحيوان اجتلبتها من البلاد النائية ؛ بل أعدّ الناس لذلك اليوم غابةً صناعيةً وضعوا فيها أنواعاً من الحيوان ، فأطلقوا فيها الثعابين والأسود ووضعوا بها دباً ونمراً وفيلًا وقردة ، وتركوها تعدو وتقفز ويقاقل بعضها بعضاً — هذه صورة ليوم تبين كيف كان يحتفل القوم ببعض أيامهم ، وفي مثل تلك الأيام كانت تمثل الروايات في الميادين وعند تقاطع الطرق لتشاهدها جموع الناس .

لكن « روايات المعجزات » كانت بالطبع — تتميز بالجد والرصانة ما دامت تمثل حوادث الإنجيل وأبناء القديسين ؛ فلا بلد للقوم ، في فترات تقع حيناً بعد حين ، من لون مسرح يخفف عن أنفسهم كرهاً ؛ ولهذا أعدت بعض المناظر المضحكة تتخلل المشاهد الجادة ؛ وهكذا دخلت عناصر الملهاة ؛ ومن الموضوعات التي وقع عليها المنظمون لتلك المناظر المضحكة في كثير من الأحيان ؛ النزاع بين الرجل وزوجته ، فذلك — فيما يظهر — ميدان خصيب الملهاة منذ نشأتها ؛ فسكنت تراهم يصورون نزاعاً يقع بين نوح وزوجته ، في صور مختلفة ، لكن زوجة نوح كانت في كل حين امرأة جموحاً تأتي أن تركب الفلّك مع زوجها ؛ وفيما يلي نموذج للحوار الذي كان يدور في مثل هذا المنظر فيعجب السامعين :

نوح : السفينة معدّة وأن لها أن تغلق ، فتعالى معي أي زوجتي الصالحة !

الزوجة : ماذا ؟ أدخل السفينة وأغادر الأرض اليابسة ؟ كلا ، ثم كلا ؛ لا تحاول ذلك

معي ، فلدى كثير من عمليات الشراء لا بد من إنجازها .

نوح : لكن الفيضان آتٍ وستغرقين .

الزوجة : كلا ، لست أخشى ذلك .

نوح : ها هوذا المطر يزداد غزارة ، لقد طال بانهماره الأمد حتى ليخيل إليّ أن لا حدّ

لهطوله ، فبالله تعالى واتخذني مكانك من السفينة .

الزوجة : السفينة ؟ ماذا تعني ؟ أي سرّ هذا الذي أخفيته عني طوال هذه السنين ؟ لماذا

لم تستشر زوجتك في هذا ؟

نوح : سر الأسر في الأسر ؛ لقد لبثت قرناً كاملاً أعد هذه السفينة ، وكان بوسعك أن تربها في الفناء أى وقت شئت من هذه الأعوام المائة .

الزوجة : قد يكون ذلك ؛ لكنى لا أميل إلى ركوب السفينة ؛ فأنا أستطيب الإقامة حيث أقيم ؛ ولا تعجبني البتة حياة فوق سطح الماء ؛ وليس في نيتي أن أرحل .

نوح : ولكنك ستغرقين ، ولا ريب .

الزوجة : هل أعددت في سفينتك مكاناً لرفيقتى لكي أتحدث إليهن أحاديثي المستفيضة التي أعددتها ؟ إنه لا غنى لى عن الثروة فى مثل هذه الجماعة ؛ أما أن تزجى فى سفينة كبيرة وليس إلى جانبي أحد أحده — فتضفى فى زمرة الوحش والطير والزواحف فلا ! أواه ! إن مجرد الفكرة فى ذهنى حرى أن يصيبنى بالدوار .

[ وهنا تلطم زوجها فوق أذنه ]

نوح : أى زوجتى الصالحة ! اهدئى

[ وتدخل الزوجة فى نهاية الأسر سفينة زوجها ؛ لكنهما يواصلان النزاع

أثناء الرحلة حينما بعد حين ]

ولما استهل القرن الخامس عشر ، شاع لون آخر من الرواية التمثيلية ، أطلق عليها « المسرحية الخلقية »<sup>(١)</sup> لأنها تقصد إلى درس فى الأخلاق تلقنه النظارة ؛ ومن مميزات هذا النوع ، أن شخصيات الرواية لم يكونوا أشخاصاً من الناس بل طائفة من المعانى المجردة ، كالفضائل والذائل ؛ وقد أعجب الناس بهذا اللون من تجسيد المعانى لأن القوائد الرمزية كانت شائعة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فكأنما تهيأت بها النفوس لروايات أسامها الرمز بالأشخاص إلى المعانى ؛ ومن المعانى التى ألف الكتاب أن يرمزوا لها عندئذ « الخطايا السبع القاضية » ؛ و « العدالة » و « الحقيقة » و « السلام » وغيرها ؛ وكانت « الشخصية » الرئيسية فى أمثال هذه الروايات الخلقية هى « الرذيلة » ، وقد أخذت شخصية « الرذيلة » شيئاً فشيئاً تكتسب خصائص معينة ، لأن ممثلها كان دائماً يركن إليه فى التهريج والتفكيت وتدبير الأضاحيك ؛ لأن الناس كانوا فى حاجة إلى

عنصر التخفيف عن النفس في رواية تثقل بحوادثها وعظاتها ؛ ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن هذه الشخصية أخذت تتطور في المسرحية الإنجليزية حتى أصبحت عند شيكسبير شخصية « المضحك » التي يلجأ إليها في ما سببه للتخفيف من شدة المأساة على المشاهدين ( كما ترى في رواية « الملك لير » ) .

ثم تفرع عن المسرحية نوع جديد ، كانوا يمثّلونه في حفلات الطبقة العليا ومآدبها ، ليملأوا به الفراغ بين مرحلتين متعاقبتين من مراحل الاحتفال لتسليمة الحاضرين وإدخال السرور على نفوسهم ؛ ويمكن أن نطلق على هذا النوع من المسرحية « رواية الفترة »<sup>(١)</sup> وهي — بالطبع — قصيرة مليئة بأسباب المرح .

وأول رواية من هذا القبيل كتبها « جون هييود John Heywood » عام ١٥٢١ في عهد الملك هنري الثامن ؛ وأجود هذا النوع رواية عنوانها « الباءات الأربعة » وإنما سميت كذلك لأنها تقص عن أربعة أشخاص هم : حاج وقسيس وصيدلي وبائع جائل ، والألفاظ الدالة على هذه المهن في الإنجليزية تبدأ كلها بحرف « P »<sup>(٢)</sup> وتتلخص الرواية في أن نزاعاً نشأ بين الحاج والقسيس أيهما أنفع في السمو بالروح ، فيقول الحاج لبيان فضله إنه سافر في بلاد كثيرة وأن خير ما يصلح الروح هو السفر ؛ فيجيب القسيس قائلاً إن مجرد الرحلة قد لا يفيد أن الراحل قد أفاد شيئاً من رحلته ، فربما عاد كما سافر دون أن يضيف إلى علمه شيئاً جديداً ؛ وهنا يدخل الصيدلي فيفاخر الآخرين بعلمه الواسع بالسموم والعقاقير ؛ ثم يدخل البائع الجائل فيضع حمل بضاعته فوق الأرض ويعرض ماله من صنوف مختلفة ، ولكنه لا يجد بين الحاضرين شارياً ؛ ويتفق الثلاثة الآخرون على أن يحكموا هذا البائع الجائل في موضوع الخلاف : أي المهن الثلاث تفيد الروح ؟ ويرفض البائع أن يكون حكماً في مثل هذه المشكلة العسيرة ، ولكنه يلحظ في الرجال الثلاثة مقدرة على تليفيق الأكاذيب ، فيقول إنه قمين أن يبين لهم أيهم أقدر على الكذب وهنا يأخذ كل منهم في حكاية قصة يتمذر على العقل تصديقتها ؛ وفاز بالجائزة الحاج لأنه

(١) Interlude

(٢) الحاج = Palmer ؛ القسيس = Pardoner ؛ الصيدلي = Potecary ( وعجلوها

الحديث Apothecary ) والبائع الجائل = Pedlar

قرر أنه زار كثيراً جداً من بلاد الأرض ، منها الريف ومنها الحضر ، وتحدث إلى أليف وأليف من النساء ، لكنه لم يصادف بينهن امرأة واحدة تهورت وانفست واحتدت في النقاش ، وتلك بالطبع أكذوبة الأكاذيب وأعجوبة الأعاجيب .

ونلاحظ أن « رواية الفترة » ضرب من « الرواية الخلقية » إلا أنه يتميز بالقبصر : فضلاً عن إهماله للرمز وبعده نوعاً ما عن قصد التعليم والتلقين ؛ و « رواية الفترة » من ناحية أخرى تسير بالمسرحية خطوة في طريق التطور ، لأنها كانت تمثل داخل الدور لا في العراء ؛ وكانت تمثل للطبقة الممتازة لا للطبقة الوسطى والدنيا من الدهماء .

وكما شهد أوائل عهد هنري الثامن « رواية الفترة » ، شهد لونا آخر من المسرحية يطلق عليه « رواية القناع » ورد إلى إنجلترا في ذلك الحين من إيطاليا ؛ ورواية القناع قصيرة وتصاحبها الموسيقى ويشترط فيها أن تكون مناظرها زاهية الألوان وأن يلبس الممثلون فيها ثياباً مزخرفة وأن يسايرها رقص ؛ ولا يمثل « رواية القناع » ممثلون محترفون ، بل يقوم بتمثيلها السادة والسيدات أنفسهم ، كل يضع على وجهه قناعاً يتنكر به ؛ وقد بقي هذا النوع من التأليف المسرحي في إنجلترا حتى القرن السابع عشر ، فكان من كتابه الأعلام « بن جونسن » و « بومنت » و « فلتشر » و « ملتن » كما سيأتي بسد ، حين نتحدث عن هؤلاء الأدباء في القرن السابع عشر .

\*\*\*

كانت « روايات المعجزات » — كما رأيت — يؤلفها ويمثلها رجال النقابات ، كما كان يمثلها قبل شمامسة الكنيسة ؛ فلما أخذت الروايات التمثيلية تبعده عن موضوعات الدين شيئاً فشيئاً وتخوض في أمور دنيوية ، بدأ اتجاه جديد نحو تدريب فئة خاصة من الناس على صناعة التمثيل ، ومن هنا سار التمثيل في طريقه إلى الاستقلال عن النقابات الصناعية وعن الكنائس ورجالها ليصبح فناً قائماً بذاته ؛ وبدأت تتكون فرق التمثيل على نحو عجيب ، وذلك أن تألفت لسكل قصر من قصور الأشراف والنبلاء فرقة خاصة به ، بحيث لا تسمح الحكومة لفرقة تمثيلية أن تباشر عملها إلا إذا انتسبت لواحد من هؤلاء ؛ ثم تطور الأمر خطوة جديدة ، إذ شرعت تلك الفرق تضرب في أنحاء البلاد لتعرض على الناس تمثيلها كلما سرت بأحدى المدن ، ولكنها في تجوالها ظلت محتفظة بانتسابها لهذا

أو ذلك من طبقة الأشراف خشية أن يطبقَ عليها قانون التشرّد فينزل بها أليم العقاب .  
وإن كان ذلك كذلك فأول المسارح التي شهدتها إنجلترا لم تكن إلا أبهاء القصور  
وأفنية الفنادق ، فإن كانت الفرقة التمثيلية في مقر سيدها وراعيها ، مثلت رواياتها في بهو  
قصره تسليةً له ولذويه ؛ وإن كانت مرتحلة نزلت في الفنادق السامة وأقامت تمثيلها في  
أفنيئها ، إذ كان لكل فندق في إنجلترا فناء في وسط البناء أعد لمركبات النزلاء ؛ وكان  
يطل على الفناء من أضلاع البناء الأربعة شرفة طويلة تمتد بامتداد الجوانب الأربعة وكانت  
الغاية منها أن تكون طريقاً للوصول إلى غرف الفندق ؛ في هذا الفناء الذي تحيط به  
شرفة ذات أضلاع أربعة كانت تمثل الروايات إذا ما حلت بالمدينة فرقة تمثيلية ؛ وكانوا  
يقيمون مصطبة في أحد جوانب الفناء لتسكون مسرحاً للتمثيل ، وكانت تلك المصطبة  
— بالطبع — يظلالها جزء من الشرفة البارزة من جوانب البناء ، فكانوا يستخدمون  
الجزء من الشرفة الواقع فوق المصطبة في تمثيل « الفرقة العليا » أو « الحصن » إن اقتضت  
ظروف الرواية حصناً أو غرفة عليا ؛ ولم يكن في المسرح عندئذ مناظر مرسومة لتوهم المتفرج  
ببيئة معينة ، كأن يتخيل أن القوم في بحر — مثلاً — أو في غابة أو غير ذلك ؛ بل تواضع  
الممثلون على أن يعلقوا سبورة إلى جانب المسرح يكتبون عليها المسكان الذي تقع فيه  
الحوادث المعروضة على المسرح ، وعلى النظارة أن يتخيلوا ؛ كأن يكتبوا عليها مثلاً « هذه  
غابة كذا » أو « هذا حصن كذا » أو « هذه مدينة كذا » ؛ وكلما اقتضى التمثيل تغيير  
المسكان نُحى المكتوب على السبورة وكتب اسم المسكان الجديد وهكذا ؛ وأما النظارة  
فقسمان ، قسم يقف أو يجلس في الفناء نفسه أثناء التمثيل ، وقسم آخر يجلس في الغرف أو  
في الشرفة المحيطة بالفناء في موضع يمكنهم من السمع والرؤية ؛ وجدير بنا أن نلاحظ في  
هذا المقام أن صفوف المتصورات التي تمتد في مسارحنا اليوم ما امتد الجدار إن هي إلا  
تهذيب للمسرح الأول ، فهي تقوم مقام غرف النوم التي كانت تحيط بفناء الفندق ،  
وفيها كان يجلس نزلاء الفندق ويرون ما يدور فوق المسرح .

ثم لم يلبث المسرح الحقيقي أن بدأ حياته حين أنشئ أول مسرح مستقل بذاته عام  
١٥٧٦ على مقربة من لندن ؛ وإنما نشأ على غرار ما اعتاده الناس : فناء مكشوف في  
الوسط تحيط به شرفة أو شرفات بعضها فوق بعض ؛ وكان لبعض النظارة الحق في أن

يجلسوا على جوانب معصطبة التمثيل ذاتها لقاء أجر إضافي يدفعونه ؛ ولم يكن في فرق التمثيل الأولى مثلات ، بل قام بأدوار النساء غلمان ؛ وقد كان للمسرح عند أول إنشائه في لندن بعض العقاليد ، منها أن يقف « مضحك » الفرقة عند نهاية كل فصل فيغني أغنية يشير فيها إلى أهم الحوادث والأشخاص مما كان يشغل الأذهان ، ومنها أن يجثوا الممثلون إذا ما فرغوا من تمثيل الرواية ، ويرتلوا دعوات معينة أن يحفظ الله مليكة البلاد ( الملكة اليبسات ) ؛ ومنها أن يبدأ التمثيل عصرا حول الساعة الثالثة دائما ، وأن يعلن البدء بثلاث نفخات في بوق ، وإذا كانت الرواية مأساة روعى في تذكرات الدخول أن تكون حياء ولم يكن بالمسرح الأول مناظر — شأنه في ذلك شأن التمثيل في الفندق — بل كان يكتب في تعيين المسكن بما يكتب على لوحة أو سبورة معلقة إلى جانب المسرح .

\*\*\*

وما دمنا نتبع المسرح الإنجليزي في أصوله ، فجدير بنا أن نختم القول بخلاصة وجيزة لأول ما شهد المسرح الحقيقي من روايات بمفناها الصحيح :

أول ملهاة منظمة مثلت باللغة الإنجليزية ، رواية عنوانها « رالف رويستر ذو يستر » ومؤلفها هو « نقولا يودل Nicholas Udall » ( ١٥٠٥ — ١٥٥٦ ) الذي كان ناظراً لمدرسة إيتن فناظراً لمدرسة وستمنستر ، وكانت العادة في أمثال تلك المدارس الخاصة الكبرى أن يمثل الطلاب في مناسبات معينة روايات تنتخب من الأدب اللاتيني القديم ؛ فرأى « يودل » أن يطالع الناس بشيء جديد يميز مدرسته من سواها وهو أن ينشئ لطلابه رواية انجليزية ، فألف هذه الملهاة التي نحن الآن بصدها ؛ فكانت أول ماشهدت اللغة الإنجليزية من ملاء كتبت على أصول فنية ، وإن لم تسكن من الطراز الأول في الأدب ، وخلاصتها أن « رالف » كثير المفاخرة بنفسه على أساس كاذب ، وهو قدم أحق يشير الضحك بغفلته ، تراه يطلب الزواج من أرملة مخطوبة لغيره ، ولا يرى في ذلك غضاضة ولا شذوذا .

واللهاة الثانية هي « إبرة الجدة جيرتن » كتبها « جون ستيل John Still » ( ١٥٤٣ — ١٦٠٧ ) ، وخلاصتها أن هذه الجدة العجوز كانت تصالح سراويل خادمها فافتقدت إبرتها ولم تجدها ؛ وتصادف أن صرَّ بدارها سائل مخبول فأنبأها أن امرأة معينة

سُرقت إبرتها ، وهنا تنشأ معركة حامية يشترك فيها عدد كبير من أهل القرية ؛ ثم وُجِدَت الإبرة مغروزة في السراويل التي كانت تصلحها حيث تركتها .

وأما أول مأساة في اللغة الإنجليزية فرواية « جُوربُودك » اشترك في تأليفها كاتبان هما « تومس ساكفيل Thomas Sackville » و « تومس نورتنُ Thomas Norton » وقد مثلت هذه الرواية أمام الملكة اليعصابات في العام الثالث من حكمها ؛ وكانت هذه أول مسرحية إنجليزية كتبت بالشعر المرسل ؛ وخلاصتها أن كان لجوربودك — ملك بريطانيا العظمى — وملكته « فيدينا » ولدان هما « فركس » و « يوركس » ؛ وحدث أن قسم جوربودك ملكه بين ولديه ، فأقتتل الولدان وانتهى الأمر بهما أن قتل « يودكس » أخاه « فركس » فأقسمت فيدينا لتتأرن لولدها المقتول من ولدها القتيل ، وطعنته الطعنة القاضية وهو نائم ؛ فثار الشعب الإنجليزي لهذا الانتقام الشنيع تقآرفه أم ضد ولدها ، وفتك بالملك والملكة معا — ويلاحظ أن هذا القتل كله لم يكن يحدث على المسرح ، إنما كان يخرج إلى النظارة رسول ينبيء بما حدث في سياق الحوار بين الممثلين .

وإنما أوحى بهذه البواكير من الملهاة والمأساة روايات « يلوآس » و « سِنِكا » الكاتبين الرومانيين القديمين ؛ فعلى أساس أولهما قامت الملهاة الحديثة ، وعلى أساس ثانيهما نهضت المأساة ؛ ولكن وحيهما لم يكن إلا قَطْرًا لم يلبث أن انهمر غيثًا في شيكسبير ومعاصريه ، وموضع ذلك فصل قادم .